القراءات المتواترة بين منهج المحققين والمستشرقين

أ.د. أحمد عدنان بن ياسين الزعبي(*)

الحمدُ لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه تُنجز الأعمال، وببركته تتحقق المقاصد والغايات، والصلاة السلام على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم وبعد،،،

فإنَّ الله عزَّ وجل أنزل كتابه العظيم على قلب الرسول ﷺ بلسان عربي مبين، وجعله خاتمة الكتب السماوية، وكتب على نفسه جل جلاله صونه من عبث العابثين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، تصديقًا لوعده: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾(١).

وقد أنزل القرآن الكريم بقراءات متعددة تيسيرًا على الأمة، كما أخبر بذلك النبي ﷺ، عن أبي بن كعب "ﷺ"أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إنَّ الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا"(٢).

وعندما دُوِّنت العلوم وظهرت التخصصات اتبع علماء القراءات منهج التحقيق والتدقيق في نقل وضبط القراءات المتواترة، فوضعوا القواعد والمناهج والأسس العلمية الدقيقة حتى ميزوا الصحيح المتواتر من الشاذ الضعيف صونًا للقرآن الكريم.

وقد وجّهت المدرسة الاستشراقية الغربية سهام الحقد والكراهية

(*) أستاذ الدراسات القرآنية المساعد في جامعة طيبة.

(١) سورة الحجر آية: ٩.

(٢) صحيح مسلم ٢/٢٠٣، ٢٠٤. باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف.

والتشكيك في تعدد واختلاف القراءات المتواترة؛ فكانت الدراسات القرآنية المجال الخصيب لشبهاتهم وأباطيلهم؛ لأنهم يعلمون منزلة القرآن الكريم في الأمة الإسلامية، لذلك قامت أبحاثهم ودراساتهم على قواعد مضطربة، بعيدة عن المنهج البحثي العلمي الصحيح.

وعكف المستشرقون على دراسة كتاب الله دراسة غير علمية منطلقةً من زعمهم بشرية القرآن الكريم، وبنوا مناهجهم على هذا الأساس؛ ولما وجدوا نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف رأوا مجالاً لتوجيه أقلامهم في الطعن في تعدد القراءات؛ فعزوا اختلاف وتعدد القراءات المتواترة إلى خلوِّ المصاحف العثمانية من النقط والشكل، و كلّ قارئ يتولى القراءة بنفسه على مقتضى ما يفهمه من معاني الآيات.

وقد قامت هذه الدراسة على أسس ومناهج غير علمية، تفتقد إلى الأمانة والدقة والضبط، وكان الجهل وعدم الدراية في أصل القراءات ومراحل نشأتها وسبب تعددها أمرًا جليًا في دراساتهم؛ بالإضافة إلى المنهج الافتراضي والانتقائي في مناهجهم؛ فهم يبنون فكرة خاطئة ساقطة علميًا، ثم يؤيدونها بنقولات كاذبة وبراهين افتراضية واهية؛ وكان كل من " نولدكه"، و" آرثر جيفري"، و" جولد زيهر" أبرز دعاة المنهج الاستشراقي في الدراسات القرآنية.

وناقش الباحث في هذا البحث منهج المستشرقين في تعدد واختلاف القراءات القرآنية بأسلوب منهجي علمي محايد فوقف فيه على الأغلاط والأخطاء عندهم، كما بين منهج القراء المحققين القائم على المنهجية البحثية العلمية الصحيحة حسب المعايير والموازين العلمية في نقل وضبط القراءات الصحيحة المتواترة، وقارن بين المنهجين _ منهج المحققين العلمي وبين منهج المستشرقين _ القائم على الانتقاء والافتراض والتشكيك.

ثم ذكر الباحث عددًا من الأمثلة والشواهد التي وقع فيها المستشرقون، كالنقل الخاطئ وعدم تحري الدقة والأمانة العلمية في البحث، والجهل في كثير من المسائل العلمية؛ والتي هي معروفة عند أصحاب التخصص العلمي.

• **اهمية الموضوع:**

يتناول البحث موضوع القراءات المتواترة بين منهج المحققين والمستشرقين، وتظهر أهميته من جوانب متعددة من أبرزها:

١- الدفاع عن القرآن الكريم وتفنيد مطاعن المستشرقين .

٢- كشف أباطيل وشبه المستشرقين ورد الشبهات بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل العلمي المنهجي.

٣- بيان جهود العلماء المحققين في ضبط ونقل القرآن الكريم بقراءاته المتواترة حسب منهج علمي تأصيلي.

٤- بيان مسالك المستشرقين المغلوطة في طعنهم في القراءات القرآنية القائم على الانتقائية والجهل من غير منهج علمي صحيح.

وقد جاءت خطة البحث مشتملةً على:

مقدمة، وتمهد، و مبحثين، وخاتمة.

* **التمهيد:**

ويحتوي على مطلبين:

- المطلب الأول: تعريف القراءات القرآنية وبيان مراحل نشأتها وأنواعها.

- المطلب الثاني: تعريف المنهج وبيان أهميته وآثاره.

* **المبحث الأول: الاستشراق:**

ويحتوي على أربعة مطالب هي:

- المطلب الأول: تعريف الاستشراق وبيان مراحل نشأته .
- المطلب الثاني: موقف الكتاب المسلمين من جهود المستشرقين.
- المطلب الثالث: شبه المستشرقين في تعدد القراءات
- المطلب الرابع: منهج المستشرقين في تعدد القراءات.

* **المبحث الثاني: المناهج البحثية في تعدد القراءات عند المحققين**

ويحتوي على مطلبين:

- المطلب الأول: منهج المحققين القراء في نقل وضبط القراءات القرآنية.
- المطلب الثاني: الفرق بين منهج المحققين والمستشرقين.

* **خاتمة.**

- **تمهيد: في تعريف مصطلحات العنوان:**

المطلب الأول: تعريف القراءات القرآنية وبيان نشأتها وأنواعها:

يعدُّ علمُ القراءات من أشرف وأعظم علوم الشريعة؛ لأنه متعلق بكتاب الله تلاوة وتفسيرًا وفهمًا وتدبرًا، والقرآن والقراءات حقيقة واحدة لا انفصام بينهما، فكلاهما أنزل على قلب النبي ﷺ.

أولاً: تعريف القراءات:

أ- **لغةً:** جمعٌ، مفرده قراءة وأصل مادتها تعود للجذر اللغوي الثلاثي(قرأ)[1] وهو يدل على الاجتماع، ومنه سُمي القرآن بذلك لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص، أو لجمع آياته وسوره ....

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة قرأ ١٢٨/١، ١٣٠، القاموس المحيط للفيروز آبادي، مادة قرأ ج١/ ٣٠،، مختار الصحاح مادة قرأ ١/ ٢٢٠. .

فالقراءة مأخوذة من قرأ، قراءة، وقرآنًا، وهي مصدر، من قولك: قرأت الشيء إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض.

ب- اصطلاحًا: اختلافُ ألفاظ الوحي المذكور في الحروف، أو في كيفيتها من تخفيف وتشديد، من حيث وجوه الاختلافات المتواترة المنسوبة إلى أئمة معنيين ناقلين لها.

وليس هناك فرقٌ بين القرآن والقراءات، فالقرآن هو عين القراءات المتواترة؛ لأنّ كلاهما ألفظ الوحي التي أنزلت من اللوح المحفوظ على قلب الرسول ﷺ(١).

ثانيًا: مراحل نشأة القراءات:

كانت القراءات القرآنية المتواترة متلازمة ومرتبطة ارتباطًا وثيقًا مع ألفاظ القرآن، حيث جاء بها الوحي جبريل عليه السلام على قلب الرسول ﷺ، ونقلت بالتلقي والسماع عن النبي ﷺ، وقد ثبت عنه أنه قال: "أنزل القرآن على سبعة أحرف" وصرَّح العلماء بتواتر هذا الحديث، وعلى تواتر هذا الحديث يكون مفيدًا العلم والقطع بإنزال القرآن على الأحرف السبعة، هذا بالإضافة إلى تواتر أسانيد القراءات القرآنية المتواترة والمنتهية إلى الرسول ﷺ وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه دليل على نزول القرآن على أحرف سبعة، قال: سمعت هشام بن حكيم رضي الله عنه يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها عليه، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، فكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لبّبته بردائه فجئت به رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله: إني سمعت هذا يقرأ

---

(١) إتحاف الفضلاء البشر للدمياطي ص ٦٩، في رحاب القرآن د. محمد سالم محيسن ٢٠٩/١.

سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها، فقال له رسول الله ﷺ: اقرأ فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: (هكذا أنزلت) ثم قال لي: اقرأ، فقرأت فقال ﷺ: "هكذا أنزلت إنَّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه)[١].

وعن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: " أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف"[٢].

وفي الحديث قول جبريل عليه السلام: " إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا"[٣].

كلُّ هذه النصوص تؤكد أن القرآن الكريم أنزل بأحرف قرآنية مختلفة تيسيرًا على الأمة وتوسعة عليها وخصوصية لها، وكان تعليل الرسول ﷺ بينًا ففي الحديث: " أقرأني على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف". فالعلة التيسير والتخفيف على الأمة.

وقد نُقل القرآن عبر وسيلتين متواترتين هما:

١- النقل الصوتي وهو التلقي والسماع والمشافهة.

٢- النقل الكتابي وهو ما كُتب بين يديه ﷺ.

وكان جبريل عليه السلام مراقبًا لها تين الوسيلتين، فلو أن نقصًا أو تغييرًا

---

(١) رواه البخاري باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ١٩٠٩/٤ ومسلم (رقم٨١٨) ٥٦٠/١

(٢) صحيح مسلم ٢٠٣/٢، ٢٠٤. باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف.

(٣) صحيح البخاري. باب أنزل القرآن على سبعة أحرف رقم ٥٠٧٤، و مسلم في صحيحه. باب أن القرآن أنزل على سبعة أحرف. رقم(٨٢١) ٥٦٢/١.

لبينه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[1].

والقراءات المختلفة جزء لا يتجزأ من القرآن الكريم إذ هي ألفاظ الوحي، وهي أبعاض القرآن الكريم؛ فطريقة حفظها ونقلها هي الطريقة التي حفظ ونقل بها القرآن الكريم.

وقد مرت القراءات في نشأتها بمراحل هي:

المرحلة الأولى: القراءات في زمن النبوة:

وامتازت هذه الرحلة بما يلي:

أ- مصدر القراءات هو جبريل عليه السلام وهو مبلِّغٌ عن رب العالمين.

ب- المعلم الأول للصحابة هو الرسول ﷺ وهو المرجع لكل ما اخْتَلف فيه الصحابة من حيث تعدد وتصويب القراءات كما جاء في قصة اختلاف عمر وهشام بن حكيم؛ فاختصما وذهبا إلى الرسول ﷺ فصوَّب لهمل قراءة كل واحد منهما.

ج- ظهور بعض الصحابة الذين عرفوا بالقراء، وقد أخذوا القرآن بقراءاته، وهي مرحلة تخصصية، فمنهم: عثمان، وعلي بن أبي طالب، وأبي ابن كعب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وزيد ابن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وأبو الدرداء[2].

قال الذهبي عنهم: وهؤلاء الذين بلغنا أنهم حفظوا القرآن في حياة النبي

---

(١) سورة الحاقة آية :٤٤.

(٢) معرفة القراء الكبار. الذهبي ٤٢/١

ﷺ وأُخِذَ عنهم عرضًا، وعليهم دارت أسانيد قراءة الأئمة العشرة، وقد جمع القرآن غيرهم من الصحابة كمعاذ بن جبل وأبي زيد وسالم مولى أبي حذيفة وعبد الله بن عمر وعتبة بن عامر، ولكن لم تتصل بنا قراءتهم. فلهذا اقتصرت على هؤلاء السبعة رضي الله عنهم[١].

وهكذا تلقى الصحابة القرآن من فم الرسول ﷺ وسمعوه بآذانهم، كما أعادوه بأفواههم والنبي ﷺ يسمع فيصحح أو يُقِر؛ وهذه الطريقة الأساس في نقل أصوات القرآن الكريم[٢].

المرحلة الثانية: القراءات في زمن الصحابة رضي الله عنهم:

وهي المرحلة الثانية، وقد بدأت بوفاة الرسول ﷺ واستمرت حتى نهاية النصف الثاني من القرن الهجري، وتتميز بما يلي[٣]:

أ- تتلمذ بعض الصحابة والتابعين على أئمة القراءة من الصحابة.

ب- اتساع القراءات وتوزعها في الأمصار.

ج- تعيين الخليفة عثمان قارئًا لكل قطر من الأقطار الإسلامية، ومعه نسخة من المصاحف التي نسخها، يقرؤهم القراءة الموافقة لقراءة القطر الذي أرسل إليه.

وقد أرسل إلى مكة عبد الله بن السائب المخزومي، وأبا عبد الرحمن السلمي إلى الكوفة، وعامر بن قيس إلى البصرة، والمغيرة بن أبي شهاب إلى الشام، وأبقى زيد بن ثابت مقرئًا في المدينة[٤].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) السلاسل الذهبية. د. أيمن سويد ص ١٩.

(٣) معرفة القراء الكبار ١٢٧/١.

(٤) الإتقان، السيوطي، ١٣٢/١.

المرحلة الثالثة: القراءات في زمن التابعين:

وهي المرحلة الثالثة، وتبدأ من بداية النصف الثاني إلى بداية عصر التدوين للعلوم الإسلامية، وامتازت بالآتي[1].

أ- إقبال جماعة من كل عصر على تلقي القرآن من هؤلاء القراء الذين أرسلوا إليهم، حيث تلقوا عنهم القرآن مع الموافقة للرسم العثماني الذي به كتب ورسم.

ب- تفرغ قوم للقراءة والأخذ واعتنوا بضبط القرآن، فصاروا أئمة يقتدى بهم، وأجمع أهل العلم على تلقي قراءاتهم بالقبول، ونظرًا لخبرتهم وضبطهم وإتقانهم في علوم القرآن نسبت القراءة إليهم نسبة اشتهار، ففي المدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع ت ١٣٠هـ، وشيبة بن نصاح ت ١٣٠هـ، ونافع ت ١٦٩هـ، وفي مكة: عبد الله بن كثير ت ١٢٠هـ، وحميد الأعرج ت ١٣٠هـ، ومحمد، وفي الكوفة يحيى بن وثاب ت ١٢٠هـ، وعاصم ت ١٢٩هـ، وسليمان بن الأعمش ت ١٤٠هـ، وحمزة الزيات ت ١٥٦هـ، وعلي الكسائي ت ١٨٩هـ.، وفي البصرة: عبد الله بن أبي إسحاق ت ١٢٩، وعيسى بن عمر ت ١٤٩هـ، وأبو عمرو بن العلاء ت ١٥٤هـ، وفي الشام عبد الله بن عامر ت ١٢٨هـ.

المرحلة الرابعة: مرحلة التأليف:

وهي مرحلة تدوين القراءات، وقد اعتُمد على تدوينها عبر ثلاثة مصادر، هي:

---

(١) التيسير أو عمر الداني ص ٥.

أ- النقل والرواية والتلقي والمشافهة: فقد تناقلت الأمة الحروف القرآنية جيلاً بعد جيل عن طريق التلقي والمشافهة، وهي الطريقة التي تلقاها النبي ﷺ من جبريل عليه السلام، وتناقل العلماء القراءات تبعًا لرواية القراءة[١].

ب - المصاحف المنسوخة من المصاحف العثمانية: وهي التي عليها اعتمد في تأييد ضبط الرواية؛ فالكلمة عندما كُتبت رُسِمت مجردة من النقط والشكل ليحتمل رسمها القراءات القرآنية التي بها تقرأ، وكان الرسم أحد مراجعها، وقد ظلّت المصاحف العثمانية تسير جنبًا إلى جانب رواية الأئمة للقراءة، وعدَّ علماء القراءات الرسم ركنًا من أركان قبول القراءة، لتلازم العلاقة بينهما[٢].

ج- الكتب المؤلفة في القراءات: احتلت القراءات مكانة كبيرة، وصارت علمًا من علوم الشريعة، فقام علماء الفن بضبط القراءة المتلقاة عن أكثر من قارئ، حرصًا على سلامة النص القرآني من أن يطرأ عليه اللحن والتغيير، من جاهل أو عدو، وكان أبو عبيد القاسم بن سلام ت ٢٢٤أول من ألّف فيه المؤلفات، وقيل أبو حاتم السجستاني[٣]، بعد ذلك ظهر ابن مجاهد ت٣٢٤هـ، في كتابه السبعة، وكان لكتابه أثر كبير في انتشار القراءات السبعة، بعد ذلك تواكبت التآليف في كتب القراءات فألف مكي بن أبي طالب القيسي ت٤٣٧ هـ كتابه التبصرة، والكشاف، وألف أبو عمر الداني ت ٤٤٤هـ كتابه التيسير في القراءات السبع ثم جامع البيان[٤]ثم متن الشاطبية....الخ.

---

(١) النشر في القراءات العشر ١/ ٦

(٢) المرجع السابق ١/ ٩.

(٣) النشر في القراءات العشر ١/٣٣-٣٤.

(٤) ينظر: جامع البيان ٢/٤٩٣.

وبقيت الكتب والمؤلفات تظهر كل فترة، وكان العلماء في فن القراءات يحررون العلم ويكتبون ويختصرون فيه، فصارت هذه المؤلفات بمثابة المرجع النظري لتلقي القرآن العظيم، يقوم الطالب باستيعاب كتاب من كتب القراءات المعتمدة ثم يشافه شيخه فيقرأ القرآن بما حواه ذلك الكتاب من قراءات.

ثالثًا: أنواع القراءات:

ليس كل ما يروى من القراءات تجوز قراءته أو يحكم عليه بالصحة والقبول قراءة تنسب للقراء العشرة، وتوجد كتب ومصنفات قد حوت الكثير من القراءات دون إسناد بل منها ما لا أصل له.....، غير أن المحققين من علماء القراءات قسموها من حيث القبول والرد إلى قسمين[1]:

القسم الأول :القراءات المتواترة:

وهي التي اشتملت على شروط القراءة الصحيحة المذكورة في كتب المحققين من صحة السند،وموافقة الرسم، وموافقة أحد أوجه العربية، وقد لخص ابن الجزري الشروط في منظومته طيبة النشر بقوله:

فكل ما وافق وجه نحو وكان للرسم احتمالا يحوي

وصح إسنادا هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان

وحيثما يختل ركن أثبت شذوذه لو أنه في السبعة

وقد حققت القراءات العشر المقروء بها اليوم في العالم الإسلامي شروط التواتر، وما عداها اليوم فيحكم عليه بالشاذ، واتفق العلماء أن

(١) الإتقان للسيوطي ١٠٢/١.

القراءات المتواترة الصحيحة هي المروية عن كل من: ابن عامر الشامي (ت ١١٨ هـ)، وابن كثير المكي (ت ١٢٠ هـ)، وعاصم بن أبي النَّجود (١٢٧ هـ)، وأبي عَمرو البصري (ت ١٥٤ هـ)، وحمزة الزيات (ت ١٥٦ هـ)، ونافع المدني (ت ١٦٩ هـ)، والكسائي (ت ١٨٩ هـ)، والثلاثة الذين يكتمل بهم العشرة، وهم أبو جعفر المدني (١٣٠ هـ)، ويعقوب الحضرمي (ت ٢٠٥ هـ)، وخلف البزار (ت ٢٢٩ هـ).

وليس كلّ ما يُعزَى إلى هؤلاء صحيح متواتر، بل لا يقرأ إلا بما ثبت عنهم على وجه المشافهة دون الانقطاع، لأن القراءة سنة متبعة يأخذها الآخر عن الأول كما تقدم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " ولم ينكر أحد من العلماء قراءة العشرة، ولكن من لم يكن عالما بها أو لم تثبت عنده ... فليس له أن يقرأ بما لا يعلمه"(١)، وقد بين المحققون من القراء الكتب المعتمدة التي حوت القراءات الصحيحة والتي يقرأ بها اليوم في العالم الإسلامي وهي:

١- منظومة الشاطبية.للإمام القاسم بن فِيرة الشاطبي(ت ٥٩٠هـ).

٢- تحبير التيسير في القراءات العشر للحافظ أبي الخير محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ)

٣- منظومة الدرة في القراءات الثلاثة.لمحقق الفن محمد بن الجزري.

٤- النشر في القراءات العشر ومنظومته " طيبة النشر" لمحمد بن الجزري.

(١) ينظر دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية ٧٠/١.

ولا تزال أسانيد هذه الكتب متصلةً إلى مؤلفيها ومن ثم إلى القراء المشهورين العشرة، ومنهم إلى الصحابة ﷺ إلى رسول الله ﷺ.

القسم الثاني: القراءات الشاذة:

وهي القراءات التي فقدت أحد الأركان الثلاثة المتقدمة من شروط القراءة المتواترة، قال أبو شامة:" كل قراءة اشتهرت بعد صحة إسنادها وموافقتها خط المصحف ولم تنكر من جهة العربية فهي القراءة المعتمد عليها، وما عدا ذلك فهو داخل في حيز الشاذّ والضعيف وبعض ذلك أقوى من بعض"(١).

ومصطلح الشذوذ عند المحققين من القراء مصطلح خاص، يقصدون به ما خرج من أوجه القراءات المتواترة المحققة للشروط الثلاثة السابقة، والشذوذ أنواع ومراتب، يتفاضل بعضها على بعض بحسب إسنادها وموافقة أو مخالفة رسمها، وبحسب موافقتها لوجه العربية قوة وفصاحة(٢)وقد تركت مراتبها اختصارًا.

ولذلك وقع المستشرقون في أغلاطٍ وأوهام عندما جعلوا مصادرهم في نقل القراءات المصنفات التي حوت القراءات الضعيفة أو المقطوع سندها، والتي عرفت عند المحققين من القراء بضعفها وعدم صحتها، بنما نسوا أو تناسوا المصنفات الصحيحة المعتمدة عند أهل الفن والتحقيق.

---

(١) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ١٧٨.

(٢) انظر التجبير في علم التفسير ص١٤٢.

المطلب الثاني: تعريف المنهج وبيان أهميته وآثاره:

أولاً: تعريف المنهج:

أ- **المنهج لغةً:** الشيء الواضح الذي يوصل إلى الهدف، جاء في معجم لسان العرب في مادة نهج: "و المنهاج: الطريق الواضح .

واستنهج الطريق: صار نهجًا، و في حديث العباس: لم يمت رسول الله ﷺ حتى تركّكم على طريق ناهجة أي واضحة بينة ..و فلان يستنهج سبيل فلان أي يسلك نهجه، والنهج الطريق المستقيم"(١).

و قد شرح ابن فارس في معجم مقاييس اللغة المنهج: "المنهج كلمة مشتقة من المادة (نهج) النون و الهاء و الجيم أصلان متباينان :

- الأول النهج، الطريق.
- و نهج لي الأمر: أوضحه. وهو مستقيم المنهاج و المنهج: الطريق أيضا، و الجمع المناهج .

والآخر: الانقطاع، وأتانا فلان ينهج: إذا أتى مبهورًا منقطع النفس، وضربت فلانًا حتى أُنهج: أي سقط . البلى"(٢)

والمقصود هو الدال على الشيء الواضح البين الذي يسلكه الإنسان للوصول إلى هدفه، كالطريق الواضح المحسوس، والبرنامج الذي يسير عليه.

وذُكر المنهج بلفظه في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴿٤٨﴾﴾

(١) لسان العرب، ابن منظور، باب النون، مادة نهج: ٣٠٠/٤

(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس ٣٦١/٥.

قال الإمام القرطبي" الشرعة بالشريعة، و المنهاج فإنّ أصله: الطريقُ البيِّن الواضح، يقال منه: هو طريق نَهْجٌ، ومَنهْجٌ بيِّنٌ، . قال الراجز:

مَنْ يكُ فِي شَكٍّ فَهذَا فَلْجُ ماءٌ رَوَاءٌ وَطَرِيقٌ نَهْجُ[1]"

ب- المنهج اصطلاحًا: إنه خطوات منظمة يتخذها الباحث؛ لمعالجة مسألة أو أكثر، ويتبعها للوصول إلى نتيجة[2].

ومن خلال الاستقراء في المناهج عامة نجد أنها قسمان: صحيحة وفاسدة، والذي يهمنا هنا الأول وهو المنهج الذي يتخذ من الكتاب والسنة والنظر الصحيح والاعتبار ... منهجًا يعتمد عليها.

ج- بيان المراد بمنهج المحققين والمستشرقين: إن المقصود من دراسة منهج المحققين والمستشرقين عمومًا هي أصولهم في نقلهم ونقدهم للقراءات القرآنية، ومعرفة طرق الرواة ومروياتهم، واصطلاحاتهم في فنهم، وشروطهم في تصنيف كتبهم، ومدى موافقتهم لغيرهم، والعلاقة بين كتبهم وغيرها من الكتب إن وجدت.

ثانيًا: أهمية المنهج:

تُعَدُّ دراسة المنهج اليوم من أخصب الدراسات البحثية الجامعية، لأنها تحقق الفائدة العلمية التخصصية في متابعة تطور العلوم من جانب، وفي دفعها للإمام من جانب آخر؛ وقد أصبح تقدم البحث العلمي متلازمًا مع المنهج، فما ضعُف العلم وانحسر إلا بنقصٍ في تحديد المنهج العلمي وتطبيقه، وما قوي وازداد أصالة إلا بالدقة في تحديده .

---

(١) تفسير القرطبي ٢١١/٦.

(٢) معجم المصطلحات العلمية، يوسف خياط ٦٩٠.

ويمكن تحديد أهمية المنهج من خلال النقاط الآتية:

١- السير العلمي المنهجي بخطوات متسمة بالوضوح والبيان .

٢- اختصار الطريق لتحقيق النتيجة المطلوبة .

٣- ضمانٌ من التعثر والعقبات التي تحول دون الوصول إلى المقصود .

٤- الوقوف على تجارب العلماء وأخذ الخبرة من مناهجهم العلمية، للسير على مسارهم الصحيح .

ثالثًا: الآثار الإيجابية والسلبية في قضية المنهج:

من خلال ما سبق في ذكر أهمية المنهج تبرز أهم الآثار الإيجابية لتطبيق المنهج، وأهمها:

١- تحقيق المسيرة العلمية البحثية على ضوء ركائز صحيحة.

٢- التميز بالوضوح والبيان.

٣- تحقيق النتائج العلمية المطلوبة .

٤- السلامة من العثرات والعقبات.

٥- الوصول إلى المراد بأبسط طريق وأيسر سبيل .

أما ترك المنهج وإهماله فينتج عنه آثار سلبية، أهمها:

١- الوقوع في التخبط والأخطاء والعوائق المانعة من الوصول إلى الهدف المطلوب .

٢- الغموض والتناقض.

٣- التخبط العلمي والفوضى الفكرية وما ينبني عليها من نتائج ضارة وأفكار منحرفة تعود على المجتمع والأمة بالسلبيات المتعددة والأضرار الخطيرة .

وبالرجوع إلى الكتب والمصنفات وتتبع حياة العلماء العلمية في التاريخ القديم والمعاصر يجد الباحث أصولاً راسخة ومنهجًا واضحًا بنوا عليه أبحاثهم العلمية، فتحقق الأثر والنفع من علومهم ومعارفهم، وخير برهان على ذلك منهج القراء العشرة رحمهم الله.

و يلاحظ ذلك في عدد من الكتب المؤلفة من المصنفين أنفسهم، فمثلاً في علم القراءات، وضّح الشاطبي منهج قصيدته في المقدمة فكانت سلمًا يرتقي القارئ على درجاته، وكذا الحال مقدمة ابن الجزري في كتابه النشر، وكذلك الحال في العلوم الأخرى ففي مصنفات وروايات الحديث كانت مقدمة الإمام مسلم لصحيحه منهجًا بين فيه أصول الصحيح وقواعده، وكذلك " رسالة أبي داود إلى أهل مكة " في علم الحديث.....

وقد نشط الباحثون في العقود الماضية في دراستهم الجامعية و غيرهم في الكتابة عن مناهج الأئمة المحدثين من جوانب عدة، و أُلفت كتب و رسائل كثيرة في ذلك، و هي مبنية على الاستقراء والتتبع للكتاب المراد دراسة منهج مصنفه فيهِ إضافة إلى ما سبق .

- **المبحث الأول: الاستشراق:**

ويحتوي على أربعة مطالب:

المطلب الأول: الاستشراق وبيان مراحل نشأته:

أولاً: تعريف الاستشراق

أ- لغة:

لم يرد لفظ الاستشراق في المعاجم العربية " لسان العرب، القاموس المحيط"، ولكن إذا فككت كلمة " **الاستشراق** "تكون مشتقة من الشرق، يقال:

شرقت الشمس، أي طلعت، واسم الموضع المشرق، واستشـــرق، أي طلـــب دراسة ما يتعلق بالشرق، فالألف والسين والتاء في أي فعل تدل على الطلب مثل استغفر، أي طلب المغفرة[١].

ب- اصطلاحًا:

الاستشـــراق orienalism: هو حركة فكرية ثقافية تُعنى بدراسة حضارة الأمم الشرقية بصفة عامة، وحضارة الإسلام بشكل خاص، يقودهـــا كتـــاب غربيون، بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيـــه وتضـــليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عليهم، ومحاولة تسويغ هذه التبعيـــة بدراســـات ونظريات تدَّعي العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصـــري والثقـــافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي[٢].

وهو ما يؤكد أن معظم المهتمين بالدراسات الشرقية الإسلامية هم رجال دين من اليهودية والنصرانية، كان دافعهم الأول انتصارًا لدينهم، مـــدفوعين بعاطفة دينية، وعصبية وحسد على انتشار الإسلام، وانحسار النصرانية.

ثانيًا: مراحل نشأته:

يمكن تقسيم مرحلة نشأة الاستشراق إلى مرحلتين:

١ - النشأة غير الرسمية:

يرى كثيرٌ من الباحثين أن نشأة الاستشراق ترجع إلى جذور تاريخيـــة قديمة يُرجعونه إلى حملات الصليبيين واجتياحهم بيت المقدس وهزيمتهم أمام صلاح الدين الأيوبي، فرجعت من غير تحقيق أهدافها، ومُنيت بإخفاق وفشل رغم أنها رفعت الصليب شعارًا لهذه الحرب، لتعلن أنها حرب دينية مقدسة،

(١) القاموس المحيط ٢٤١/٣، ومختار الصحاح ٣٣٦.

(٢) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، ص ٥.

ولما أخفقت في تحقيق أهدافها في السيطرة على العالم الإسلامي، بدأت تغير تخطيطها إلى أهداف غير معلنة مثل أهداف علمية أو فكرية أو ثقافية، وكان بديلاً عن أسلوب المواجهة العسكرية.

ومن هذا السبب يربط كثيرٌ من الباحثين علاقة الكنيسة بحركة الاستشراق؛ لأنّ سدنة الحملات الصليبية كانوا من رجال الكنيسة، وطليعة المستشرقين هم من القساوسة ورجال الدين المسيحي.

بعد ذلك بدأت فكرة الاستشراق تبذر أكثر حتى تبلورت في نهاية القرن العاشر الميلادي وأوائل القرن الحادي عشر بفرنسا، عندما ظهر الراهب الفرنسي (جرير دي أولياك ٩٣٨ - ١٠٠٣م) وكان من أوائل المشتغلين بعلوم الشرق، وارتبطت باسمه بداية حركة الاستشراق، إذ رحل من فرنسا إلى أسبانيا مهد الحضارة الإسلامية في وقته، فتعلم فيها اللغة العربية ووقف على علوم العرب في الرياضيات والطب والكيمياء والفلسفة.

كما قرأ بعض العلوم الدينية حتى قيل إنه كان أوسع علماء عصره معرفة بعلوم العرب، وخاصة في الرياضيات والفلك، ثم ارتحل إلى روما حيث اشتهر من بين أقرانه بمعرفته الواسعة باللغة العربية وعلومها، وانتخب حبرًا أعظم باسم سلفستر الثاني (٩٩٩ - ١٠٠٣م) وكان بذلك أول بابا فرنسي.

ثم تتابع عدد من رواد هذه الحركة وتكاثرت أعدادهم لتشمل بلاد أوروبا، وبلادًا أخرى في أمريكا وغيرها من بلاد الغرب مع توسع وتنظيم وتخطيط محكم، وهذه المرحلة من النشأة يسميها البعض مقدمات وإرهاصات[1].

---

(١) انظر مقال " كنه الاستشراق"، ص ٣٩. د. النملة، كتاب دوري محكّم، ع١. المدينة المنوَّرة: كلية الدعوة والإعلام، جامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلامية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م- ص ٢٢- ٦٠.

٢ - النشأة الرسمية:

استمرت حركة الاستشراق في نمو مستمر وازدادت حركة البحث والتأليف والدراسة خاصة بعد عقد مجمع فيينا الكنسي عام٧١٢هـ/ ١٣١٢م مؤتمره الكبير الذي خرج بتوصيات وقرارات، من أهمها إنشاء عدد من كراسي اللغة العربية والعبرية في عدد من الجامعات الأوروبية، وكان القرار مقترحًا تقدم به المستشرق ريموند لول (١٢٣٥-١٣١٦م) الذي كان يحث النصارى على تعلم اللغة العربية، بغية تنصير المسلمين "بوصفه أفضل الوسائل لارتداد العرب إلى المسيحية. ورغم أن التشريع بقي دون تأثير تقريبًا لندرة معلمي اللغات الشرقية، فإن قبوله يشير إلى نمو الفكرة التبشيرية في الغرب. وكان غريغوري قد أمل قبل ذلك بارتداد المغول إلى المسيحية"[١]..

وقد أشار د. مصطفى السباعي إلى النشأة فقال: "لا يُعرف بالضبط من هو أول غربي عنى بالدراسات الشرقية ولا في أي وقت كان ذلك، ولكن المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس إبان عظمتها ومجدها وتثقفوا في مدارسها وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، وتتلمذوا على علماء مسلمين في مختلف العلوم وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات"[٢].

---

(١) الاستشراق: المعرفة السلطة الإنشاء" أدوراد سعيد، ترجمة كامل أبو ديب، الطبعة العربية الأولى بيروت - مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٨١. ص ١٠٢.

(٢) الاستشراق والمستشرقون د. مصطفى السباعي. المكتب الإسلامي ط ١٤٠٥-١٩٨٥ ص ١٤.

ثالثًا: الاستشراق في العصر الحديث:

مع مرور الزمن وتوسع الحركة العلمية كتابة وبحثًا وقيام عصر الثورة العلمية، وتوسع التخصصات العلمية، كان للدراسة الاستشراقية عناية واهتمام بالغ، شأنه شأن التخصصات العلمية الأخرى، فأصبح مصطلح الاستشراق مصطلحًا قديمًا تخلّى عنه كثير من المستشرقين المعاصرين حتى يجدوا له قبولاً عند المسلمين؛ لأنه قد اتصف بأوصاف سلبية ومنهجية غير موضوعية، فيها الكثير من الدس والكذب والتحريف.

يقول المستشرق برنارد لويس: "لقد أصبحت كلمة " مستشرق " منذ الآن فصاعدًا ملوثةً هي الأخرى أيضًا وليس هناك أمل من الخلاص ... ثم سرعان ما تبين لهم أنهم متفقون جميعًا على ضرورة التخلي عن هذه التسمية"(١).

وفي العصر الحالي برز تخصص الاستشراق ليشمل فروعًا متعددة، فمن دارسٍ للعقيدة وأصولها، وللفقه وأصوله، وللتاريخ وحضارته، وللقرآن وعلومه، وللحديث ورجاله، وللغة وآدابها، وللرسول ﷺ وغزواته وعلاقته بأهل الكتاب في المدينة، واتبعوا في ذلك منهجًا نفسيًّا ركزوا خلاله على سر قوة المسلم ونقاط الضعف في العالم الإسلامي؛ ليسلبوا المسلم سر قوته، عبر التشكيك في تراثه وثقافته وتحريف دينه.

ولم يقتصروا على دراسة الحضارة الإسلامية، بل تعددت تخصصات

---

(١) هل انتهى الاستشراق حقًا د. مازن صلاح مطبقاني، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية. الكويت. جامعة الكويت، السنة الخامسة عشرة، العدد ٤٣، رمضان ١٤٢١، ٢٠٠٠، ص ٢٨٩.

الاستشراق لتشمل الدراسات البوذية، والهندوسية، والثقافات غير العربية مثل ثقافة جنوب غرب آسيا والقارة الإفريقية وأمريكا الجنوبية.

وهذا كله يؤكّد أنّ حركة الاستشراق مستمرة في دراستها وتخصصها، متواكبة مع مستجدات واحتياجات العصر، تتغير بأسماء مختلفة تتكيف حسب الزمان والمكان.

رابعًا: دوافع الاستشراق:

لم يكن عملُ المستشرقين في الدراسة الشرقية للتراث الإسلامية إلا لأهداف ودوافع، من أبرزها:

أ - الدافع الديني:

وهو واضح في دراستهم وأهدافهم؛ فكان همهم الطعن في الإسلام، وتشويه محاسنه، وتحريفه والدس فيه؛ ليثبتوا لشعوبهم أن الدين الإسلامي لا يستحق الانتشار أو قبوله كدِينٍ سماوي؛ فوصفوا المسلمين بأنهم لصوصيةٌ سفاكون للدماء، غير مبالين بسلامة البشر.

ودفعهم إلى هذا التشويه هزيمة المسيحية أمام الإسلام، وخاصة هزيمة الصليبيين أمام المسلمين في بيت المقدس بقيادة صلاح الدين الأيوبي، حيث مُنيت الحملات الصليبية بالفشل والإخفاق، ثم المد الإسلامي في عهد الدولة العثمانية، وامتداد دولتها حتى شملت أجزاء من أوروبا الشرقية، كل ذلك ترك هاجسًا في قلوبهم من انتشار وامتداد الإسلام «لا نحتاج إلى استنتاج وجهد في البحث لنتعرف إلى الدافع الديني للاستشراق عند الغربيين، وهو الدافع الديني ..»[١].

(١) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، د. مصطفى السباعي: ص٢٠.

ب - الدافع الاستعماري:

بعد الحروب الصليبية على العالم الإسلامي، ورجوعها بالفشل والإخفاق، لجأ الغرب إلى دراسة الشرق ومعرفة عاداته وثقافته وتراثه وحضارته، ويقصد من تلك الدراسة معرفة مواطن القوة والضعف لدى المسلمين، ثم الدخول من خلال الثغرات عبر التشكيك بالتراث الإسلامي، وبثه بين الناشئة من أبناء المسلمين، حتى يجعلهم في حيرة في تراثهم وهويتهم الانتمائية، وعندها ينشأ جيل بعيد كل البعد عن دينه وثقافته وأخلاقه وآدابه وحضارته، فيستجدي القيم والأخلاق والعادات من الغرب[1].

ومن دراسته للشرق الإسلامي رأى المجتمع الإسلامي في البلاد الإسلامي قد تشكل من ثقافات متعددة وأجناس وأعراق مختلفة، وقوميات تاريخية متباينة، جمعها ووحدها الإسلام، فعاشت في لحمة واحدة وانسجام؛ فبدأ يثير الانتماءات التاريخية، ويؤجج النعرات القومية التاريخية، ويبث الدعوات الجاهلية والعصبيات العرقية، فتارة يشجع الفرعونية في مصر والفينيقية في الشام، والأشورية في العراق، والفارسية في إيران.

وهو بذلك يريد تمزق وحدة المسلمين، وتشتيت شملهم، فيعودن كما كانوا قبل إسلامهم من حروب فيما بينهم تحت دعوات جاهلية.

---

(١) الاستشراق والمستشرقون. د. مصطفى السباعي ص٢٤.

ج - الدافع السياسي:

يقول د مصطفى السباعي عن هذا الدافع: "أخذ يتجلّى هذا الدافع بعد استقلال أكثر الدول العربية والإسلامية؛ ففي كل سفارة من سفارات الدول العربية لدى هذه الدول سكرتير أو ملحق ثقافي يحسن اللغة العربية ليتمكن الاتصال برجال الفكر والصحافة فيتعرف إلى أفكارهم؟، ويبث فيهم من الاتجاهات السياسية ما تريد دولته"(١).

د - الدافع العلمي:

هناك ثلة قليلة من المستشرقين دفعهم حب الاطلاع على حضارة المسلمين والتعرف على دينهم وثقافتهم وعاداتهم، وهؤلاء لم يقدموا الدس والتحريف في الدين أو التراث، وكانت أبحاثهم وكتاباتهم أقرب إلى الحق والصواب من جمهرة المستشرقين، ومنهم من اهتدى واعتنق الإسلام(٢).

بيّن د. السباعي أهداف الاستشراق ووسائله بقوله: "منها أهداف علمية خالصة لا يقصد منها إلا البحث والتمحيص، وهذه الفئة أسلم الفئات الثلاثة في أهدافها، وأقلها خطرًا إذ سرعان ما يرجعون إلى الحق حين يتبين لهم، ومنهم من يعيش لقلمه وفكره في جو البيئة التي يدرسها، فيأتي بنتائج تنطبق مع الحق والصدق والواقع، ولكنهم يلقون عنتًا من أصحاب الهدفين السابقين، الهدف العلمي المشبوه والهدف الديني السياسي "إذ سرعان ما يتهمونهم بالانجراف عن المنهج العلمي، أو الانسياق وراء العاطفة، أو الرغبة في

(١) المرجع السابق. ص ١٨.

(٢) المستشرقون، العفيفي ٣/ ٦٢٥.

مجاملة المسلمين والتقرب إليهم، كما فعلوا مع " توماس أرنولد "[1] حيث أنصف المسلمين في كتابه العظيم " الدعوة إلى الإسلام "هذا الكتاب الذي يعتبر من أدق وأوثق المراجع في تاريخ التسامح الديني في الإسلام[2].

المطلب الثاني: موقف الكتاب المسلمين من جهود المستشرقين:

من الدراسة السابقة تبين أن هناك قسمين من المستشرقين، قسم غلب عليه التعصب الأعمى والحقد على الإسلام، وهذا القسم هو السائد والغالب في الدراسات الشرقية، هدفُه الأول التشكيك في الدين الإسلام والقول ببشرية القرآن؛ فكانت آثاره وكتاباته مملوءةً بالأكاذيب؛ والقسم الثاني الحيادية لا ذمًا ولا مدحًا، إنما خدم التراث والثقافة الإسلامية برغبة الاطلاع؛ فأخرج للمكتبة الإسلامية مزيدًا من المخطوطات النادرة.

---

(١) ولد توماس أرنولد في Devonport في سنة ١٨٦٤ في Devonport بالقرب من بليموث في إنكلترا.
تعلّم في كمبرج. و قضى عدّة سنوات – من ١٨٨٨ إلى ١٨٩٨ – في الهند أستاذا للفلسفة في كلّية عليكرة الإسلاميّة.و أستاذا للفلسفة في لاهور – من ١٨٩٨ إلى ١٩٠٤ – و مساعدا لأمين مكتبة الهند – من ١٩٠٤ إلى ١٩٠٩– و هو أوّل من جلس على منبر الأستاذيّة في قسم الدّراسات العربيّة في مدرسة اللّغات الشّرقيّة بلندن في ١٩٠٤، ثمّ اختير عميدا لها، و لقد ذاع صيته بكتابة "الدّعوة إلى الإسلام" – لندن ١٨٩٦– و "الخلافة" – أكسفورد ١٩٢٤ –. و هو صاحب فكرة كتاب "تراث الإسلام" و المشرف على تنسيقه و إخراجه، و لقد كان ملّما باللّغتين العربيّة والفارسيّة، إلى جانب إلمامه بمعظم اللّغات الأوربيّة. مالكا لمفاتيح عالم العصور الوسطى و عالم العصر الحديث. انظر حجا، الدراسات العربية والإسلامية، ص ٤١.

(٢) الاستشراق والمستشرقون. د مصطفى السباعي ص ٢٤– ٢٥.

وأمام هذين الصنفين اختلف رأي الباحثين والكتاب المسلمين إلى رأيين:

١ - الرأي الأول:

وهو رأي المعجبين الذين أُعجبوا بكتاباتهم ووثقوا بها، بل واعتمدوا عليها، ومن أشهر الباحثين: الأستاذ العفيفي، الذي ألَّف كتابًا مستقلاً ترجم فيه للمستشرقين فقال: "وكان لبعضهم دَيْنٌ علينا كما يقرر هو نفسه، فقد شغلوا بنا عشرة قرون في جميع أصقاع الأرض، وبسائر اللغات وتناولوا جميع ما للشرق من دين وحضارة وثقافة بألوف المصنفات" فلا أقل من أن نشكر لهم فضلهم على العربية بالعربية، ونذيعه في كتاب وإن لم يكن في مثل دقة كتبهم وعمقها وشمولها وجدتها[١].

ويذكر أهمية كتاباتهم في نهضة الأمة فيقول: كما وازنا بين عنايتهم بتراثنا واكتشافه وصونه وتحقيقه وبين ما قمنا نحن في سبيله؛ فرأيناها تكاد تكون متساوية، ووازنا كذلك بين ترجمة أحدهم وآثاره؛ فوجدناها يضاهيه حلقًا علميًا وعدد كتب، وأن لا غنى عن معظمها في علومنا وآدابنا وفنوننا، ولا سبيل إلى جحد فضلها في فتح عيون الشرقيين والغربيين على ما في تراثنا من ثراءٍ، ثم على نهظتنا التي كانوا من دعاتها[٢].

٢- الرأي الثاني:

وهو رأي المشككين في كل ما كتبه المستشرقون لأي شيء من كتاباتهم؛ فيقولون عنهم: إن هؤلاء المستشرقين لم يأخذوا العلم من شيوخه.... وإنما تطفّلوا عليه تطفلاً، وتوثّبوا فيه توثبًا، ومن تخرج فيه

---

(١) المستشرقون العتيق ٣/٦٢٥.

(٢) المرجع السابق ٣/٦٠٥.

بشيءٍ فإنما تخرج على القسس، ثم أدخل رأسه في أضغاث أحلامٍ أو أدخل أضغاث أحلام في رأسه، وتوهم أنه يعرف شيئًا وهو يجهله[١].

أما الدكتور عبد العظيم الديب فيقول: عنايتهم بالتراث كانت وما زالت وستظل من باب (اعرف عدوك)؛ فهذه الكتب التراثية هي الخرائط والصور لعقولنا، وعواطفنا، ومشاعرنا، واتجاهاتنا، واهتماماتنا، وحبنا، وبغضنا، وغضبنا، ورضانا، فهي المفاتيح التي عرفوا بها كيف يخططون لتدميرنا ثقافيًا،واجتماعيًا،وفكريًا،وعلميًا،بعدما حطمونا عسكريًا وسياسيًا"[٢].

والتوسط بين هذين الموقفين أنّ هناك أعمالاً قام بها المستشرقون تمثلت في خدمة التراث الإسلامي وخدمة العلوم الإسلامية، بدون دوافع سياسية أو اقتصادية أو دينية، وإنما لشغفهم بالعلوم وإعجابهم بالتراث الإسلامي حتى خلت جهودهم من أي ظنٍ أو غمز أو تشكيك، وهم قلة قليلة، وهؤلاء ينبغي بيانهم والتنويه بجهودهم.

يقول الدكتور السباعي مبينًا الموقف الوسطي لموقف المادح والقادح: "في الحق إن كلاً من الثناء المطلق والتحامل المطلق يتنافى مع الحقيقة التاريخية التي سجلها هؤلاء المستشرقون فيما قاموا به من أعمال وما تطرقوا إليه من أبحاث، ونحن قوم يأمرهم دينهم بالعدل حتى مع أعدائهم[٣].

---

(١) قائل هذا النص أحمد فارس الشدياق، انظر:، الاستشراق والمستشرقون. السباعي. ص ٣٥، والعتيقي، المستشرقون ٦٠٦/٣.

(٢) المستشرقون والتاريخ عبد العظيم الديب، مجلة البعث الإسلامي وتصدرها ندوة العلماء لكهنؤ الهند المجلد ٢٧، العددان الأول والثاني رمضان وشوال ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢ ص ١٤٣-١٤٤.

(٣) الاستشراق والمستشرقون. د. مصطفى السباعي. ص ١٣.

وكان موقف الشيخ أبو الحسن الندي واقعيًا ووسطيًا في جهود المستشرقين في خدمة التراث، فيقول: "وأعترف بكل وضوح وصراحة أن عددًا من المستشرقين كرَّسوا حياتهم وطاقتهم على دراسة العلوم الإسلامية، وتبنوا موضوع الشرقيات والإسلاميات بدون تأثير عوامل سياسية أو اقتصادية أو دينية، بل لمجرد ذوقهم وشغفهم بالعلم، وبذلوا فيه جهودًا ضخمة، ويكون من المكابرة والتقصير ألا ينطلق اللسان بمدحها والثناء عليها" .

وبفضل جهودهم برز كثير من نوادر العلم والمعارف التي لم تر ضوء الشمس منذ قرون إلى النشر والإذاعة، وأصبحت مصونةً من الورثة الجاهلين وعاهة الأرض، وكم من مصادر علمية وثائق تاريخية لها مكانتها وقيمتها صدرت لأول مرة بفضل جهودهم وهمتهم، وقرت بها عيون العلماء في الشرق![1].

المطلب الثالث: شبه المستشرقين في تعدد القراءات "نولدكة، جولدزيهر، آرثر جفري":

إنَّ موضوع هذا المبحث يكمن في منهج ضبط القرآن الكريم، وبالأخص القراءات القرآنية في مدرسة الاستشراق.

يعدُّ علم القراءات من أشرف وأتقن العلوم؛ لأنه مبني على كلام الله قراءة ونقلاً وضبطًا وفهمًا واستنباطًا لأحكام الشريعة؛ فهو أصل العلوم الشرعية، وهو محورها وأساسها، وهو يشمل القراءة والتلاوة وتعدد واختلاف القراءات المتواترة وفهم عللها وتوجيهها، ومعرفة رسمها وإعجازها وإعرابها ومجازها.

---

(١) الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين. الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي. بيروت: مؤسسة الرسالة ط٢ ١٤٠٣ ــ ١٩٨٣ ص ١٣

وإذا كانت القراءات المتواترة هي أبعاض القرآن جملة وتفصيلاً؛ فالطعن في حرف منها طعن في قرآنيتها، وهو طعن في القرآن؛ لأنها جزء منه، وقد أفتى العلماء بكفر من أنكر حرفًا منها عامدًا عالمًا.

لقد أولى المستشرقون عناية خاصة بدراسة القرآن الكريم وعلومه، وبحثوا في دقائقه، لأنه المصدر الأول لكل العلوم الشرعية، وهو وحي الله إلى نبيه محمد ﷺ؛ فصارت الدراسات القرآنية مرتعًا خصبًا لأبحاثهم وأقلامهم المسمومة؛ فزعموا بشرية القرآن، متخذين اختلاف القراءات دليلاً على اضطراب النص القرآني وأن اختلاف وتعدد القراءات كان خاضعًا لعملية النقلة والكتبة.

ومن أشد المستشرقين تحاملاً على القرآن الكريم وقراءاته ورسمه المستشرق الألماني تيودور نولدكه[1]؛ فهو شيخ المستشرقين في الدراسات

---

(١) نُولْدِكِة (١٢٥١ ــ ١٣٤٩هـ = ١٨٣٦ ــ ١٩٣٠م) تيودور نولدكه **Theodor Noldeke**: من أكابر المستشرقين الألمان.
ولد في هاربورج (بألمانيا) وتعلم في جامعات غوتنجن وفينّة وليدن وبرلين. وانصرف إلى اللغات الساميّة والتاريخ الإسلامي فعُين أستاذًا لهما في جامعة غوتنجن (سنة ١٨٦١) فجامعة كيل (١٨٦٤) ثم في جامعة ستراسبورج (١٨٧٢) ومات في كارلسروه (**Karlsruhe**) له كتب بالألمانية عن العرب وتاريخهم، منها «تاريخ القرآن» و «حياة النبي محمد» و «دراسات لشعر العرب القدماء» و «النحو العربي» و «خمس معلقات» ترجمها إلى الألمانية وشرحها. ونشر في مجلات الغرب وموسوعاته بحوثًا كثيرة، منها رسالة في «أمراء غسان» ترجمها إلى العربية بندلي جوزي وقسطنطين زريق. وله بالعربية «منتخبات الأشعار العربية ــ ط» واشترك في الإشراف على طبع «تاريخ الطبري» وترجمته إلى الألمانية. قال الأب أنستاس الكرملي: لم نجد بين حملة العلم ــ المعاصرين ــ من بلغ تحقيقه. كان يحسن اللغات الشرقية كلها كالعربية والأرمية والعبرية والصابئية والحبشية وغيرها، وله تصحيحات وتحقيقات في هذه الألسنة فضلًا عن معرفته بلغات الغرب كاليونانية واللاتينية والفرنسية والإنكليزية والإيطالية والإسبانية ولغته الألمانية.

القرآنية، ومن أشهر كتبه " تاريخ القرآن "الذي يعد دستور المستشرقين في معرفة تاريخ القرآن حتى غدا الكتاب من أقوى وأشهر المصادر التي لا يستغني عنها الباحثون الغربيون في ميدان الدراسات القرآنية، فقد عرض تاريخ القرآن مفصلاً لكل المسائل والموضوعات التي تتصل بتاريخ القرآن الكريم وعلومه ومختلف مباحثه وقضاياه" (١).

لقد بيّنَ د. عباس أرحيلة أهمية المستشرق " نولدكه" لدا الغرب، فقال: ترك في عمره المديد (٩٤) سنة حوالي سبعمائة بحث فضلاً عن أربعة وعشرين كتابًا، ولعل من أهم الأسباب التي مكنت نولدكة من بلوغه تلك المكانة العلمية وتلك الشهرة التي حظي بها في حياته وبعد مماته، اطلاعه الواسع على أهم المخطوطات في اللغات السامية، وانكبابه على دراسة القرآن في ضوء تعمقه لتلك اللغات"(٢).

أولاً: أسباب تعدد القراءات في مناهج المستشرقين

يعود سبب تعدد القراءات عند المستشرقين إلى الآتي :

أ- المرحلة الشفوية وأخطاء الرسم والإعجام،

ب- إدعاء فرضيات خاطئة تجاه نقل القرآن مع تأييدها بأدلة واهية ضعيفة.

ج- تجريد المصحف من النقط والشكل، باعتبار أن المصحف في فترة جمعه الأخير قد جُرِّد من النقط والشكل .

---

(١) د. حسن عزوزي ص ٢، مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم.

(٢) الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم ص ٧٨.

يقول جولد زيهر[1]: "والقسم الأكبر من هذه القراءات يرجع السبب في ظهوره إلى خاصية الخط العربي؛ فإن من خصائصه أن الرسم الواحد للكلمة قد يقرأ بأشكال مختلفة تبعًا للنقط فوق الحروف أو تحتها، كما أن عدم وجود الحركات النحوية، وفقدان الشكل (أي الحركات) فى الخط العربى يمكـــن أن يجعل للكلمة حالات مختلفة من ناحية موقعها من الإعراب؛ فهذه التكمـــيلات للرسم الكتابى، ثم هذه الاختلافات فى الحركات والشكل، كل ذلك كان السبب الأول لظهور حركة القراءات؛ فيما أهمل نقطه أو شكله من القرآن"[2].

وضرب أمثلةً على دعوته، فقال: "وهذا الذي ساعد على نطق الياء تاء في مثل " تقولون " أو " تفعلون " ! فمنهم من قرأ بالتاء " تقولون " ومنهم من قرأ بالياء" يقولون ".

ومع مثال من أمثلته المزعومة قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ والشاهد فى كلمة (تستكبرون)، حيث قرأ بعضهم (تستكثرون) بدلاً من تستكبرون.

---

(١) مستشرق مجري (١٨٥٠ – ١٩٢١م). تعلم في بودابست وبرلين. ورحل إلى سورية سنة١٨٧٣م، فتعرف بالشيخ طاهر الجزائري وصحبه مدة. وانتقل إلـــى فلســـطين، فمصر، حيث لازم بعض علماء الأزهر. نال شهادة الـــدكتوراه فـــي أدوات النفـــي والاستفهام في القرآن، والأستاذية في كتابه معجم قراء القراء، وعين أســـتاذًا فـــي جامعة بودابست وتوفي بها. له تصانيف باللغات الألمانية والإنكليزية والفرنسية، في الإسلام والفقه الاسلامي والأدب العربي، ترجم بعضها إلى العربية، منها:

١- حقق القراءات الشاذة في كتاب المحتسب لابن جني.

٢- نشر كتاب " مختصر شواذ القراءات " لابن خالويه.

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي جولد زيهر ص٤. ترجمة د. محمد يوسف موسى.

إنَّ جولد زيهر يرجع اختلاف القراء في هذه الكلمة إلى طبيعة الخط العربي الذي كُتب به القرآن، فقد جرد من النقط والشكل، فاختلف القراء في ذلك إلى " تستكبرون" و"تستكثرون".

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾[١].

والشاهد فى كلمة " إياه " ضمير نصب منفصل للمفرد الغائب الذكر، ثم قارنها بقراءة شاذة لحماد الراوية هكذا " إياه " بإبدال الباء من أباه "ياء " أي: وعدها إبراهيم عليه السلام.

د- إدعاء تعدد القراءات حسب أذواق وأفهام القراء.

يزعم جولدزيهر أن بعض القراء كانوا يغيرون القراءات بما ترضاه مقاصدهم، وتسيغه أفهامهم وأذواقهم[٢].

ففي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾[٣] يذكر جولد زيهر أنَّ قتادة رأى أن الأمر بالقتل هنا شديد القسوة وغير متناسب مع الخطيئة، فقرأ: " فأقيلوا " بمعنى حققوا الرجوع عما فعلتم بالندم على الخطيئة المقترفة، وهذا المثال يدل فعلاً على أن ملاحظات موضوعية قد شاركت في سبب اختلاف القراءة"[٤].

---

(١) سورة التوبة: آية :١١٤.

(٢) القراءات في نظر المستشرقين والملحدين. عبد الفتاح القاضي. ص ٢٦.

(٣) سورة البقرة آية :٥٤.

(٤) مذاهب التفسير الإسلامي ص١٠ و١١ ترجمة د. محمد يوسف موسى.

أما المستشرق آرثر جيفري، فقد وضع مقدمة يتحدث فيها عن القرآن الكريم من حيث جمعه في مراحله المتعددة، مثيرًا الشكوك والشبهات، وموجهًا الطعون المباشرة على علماء الأمة، ومقررًا بأن علماء الغرب لا يوافقون اعتقاد المسلمين في كتابهم، ومدعيًا أنهم توصلوا إلى حقائق علمية في تاريخ القرآن من الروايات العديدة، ومعترفًا بأن المسلمين لا يتفقون معهم في نتائجهم(١)، وقد مشى في دراسته البحثية على خطى من سبقه من أساتذته نولدكة، وجولد زيهر .

هذه أهم مرتكزات زعمهم في تعدد القراءات القرآنية المتواترة الموجودة بين المسلمين والتي نُقلت جيلاً بعد جيل.

المطلب الرابع: منهج المستشرقين في تعدد القراءات:

من خلال الدراسة والقراءة في شبه المستشرقين -" نولدكة " و" جولد زيهر " و" جيفري"- في أسباب تعدد القراءات القرآنية، يجد الباحث أن مناهج البحث ومعايير النقد العلمي عندهم تتصف بالآتي :

١- التشكيك فيما هو قطعي عند المسلمين.

٢- الانتقاء في اعتماد المراجع والمصادر .

٣- اعتماد المنهجي الافتراضي.

٤- التعصب البغيض والهوى الشخصي.

٥- الجهل وعدم المعرفة بالقراءات القرآنية.

---

(١) آرثر جيفري: مستشرق أسترالي عُين أستاذًا في الجامعة الأمريكية في بيروت، ثم أستاذًا في جامعة كولومبيا ، ثم أستاذًا للغات السامية في مدرسة اللغات الشرقية في القاهرة، له عدة مؤلفات منها: تحقيق كتاب المصاحف لأبي داود، المفردات الأجنبية في القرآن، وغيرها .انظر: آراء المستشرقين حول القرآن، د. عمر رضوان: ١٤٣/١.

هذه أهم منطلقات بحثهم في دراساتهم وأبحاثهم القرآنية التي اعتمدوا عليها وأفنوا فيها أعمارهم[١].

ومن الأمانة العلمية التي ينبغي أن يتصف بها الباحث الدقة في النقل، والتجرد عن أي ميل شخصي، ثم الموضوعية، فإذا تجردت الأبحاث عن هذه المرتكزات أصبح البحث هشًا لا يستحق أن يصرف في قراءاته الوقت والبحث.

ولو أرادوا الحق لرجعوا إلى كتب القراءات ورسم المصحف الصحيحة والمعتمدة عند جمهرة قراء المسلمين، مثل كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزري، وشراح متن الشاطبية، وكتاب مختصر التبيين لهجاء التنزيل للإمام أبي داوود سليمان بن نجاح، وكتاب منجد المقرئيين لابن الجزري، ثم إنّ هؤلاء المستشرقين أثناء بحثهم وانتقادهم للقراءات القرآنية، يكشف للقارئ إفراطهم في اختراع العلل والأسباب والحوادث من غير سند صحيح أو مصدر علمي موثوق، بل اعتمدت منهجيتهم على التخيل والتحكم والفرضيات الواهية، مع الدس والكيد وتشويه الحقائق، فهم: "يعينون لهم غاية، ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق، ثم يقومون لها بجمع معلومات – من كل رطب ويابس – ليس لها علاقة بالموضوع، سواء من كتب الديانة والتاريخ، أو الأدب أو الشعر، أو الرواية، والقصص، أو المجون والفكاهة، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها، ويقدمونها بعد التمويه بكل جراءة، ويبنون عليها نظرية، لا يكون لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم"[٢].

---

(١) مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم. د. حسن عزوزي. ص ١٤.

(٢) الإسلام والمستشرقون العلامة أبو الحسن الندوي،:١٩، المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء، لكنو، الهند، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م).

الرد على منهج المستشرقين:

١ - التشكيك فيما هو قطعي:

وهي شبهةٌ واهية سقطت منذ أمدٍ بعيد باعتبار أن القرآن الكريم هو تنزيل من رب العالمين، وقد ثبت عند العرب الأولين أنه تنزيل من رب العالمين، وليس العرب الآن بحاجة إلى أدنى دليل في إثبات قطعيته، ومحاولة المستشرقين في التشكيك في ثبوته، هي محاولة غير مجدية ومنتهية منذ زمن.

إنَّ المستشرقين لا يرون بأسًا في بشرية القرآن الكريم، بالإضافة إلى التشكيك في طرق جمعه ونقله، وهم يحققون بذلك مكسبًا كبيرًا لدعواهم؛ لأنّ التشكيك في القرآن هو تشكيك في كل شيء سوى القرآن، وهم لا يقرون بأن القرآن الكريم قد جمع بطرق ومناهج علمية دقيقة، حتى تلقّاه الصحابة بالقبول والإذعان، ثم التابعون ومن تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا، بوسائل عالية من التثبت والدقة والحفظ والصون(١).

٢ - الانتقاء في اعتماد المراجع والمصادر:

تُعد المصادر والمراجع ذا قيمة علمية كبيرة في قوة البحث ونجاحه وقبوله عند أهل التخصص، وهي المنابع العلمية التي تغذِّي البحث، وكلما كانت المصادر والمراجع صحيحة في الضبط والنقل كانت الدراسة أكثر قبولاً وأتقن في صناعة البحث.

ولكن يلاحظ في وصف مناهج المستشرقين أنها اعتمدت على عدد معين ومحدود من المراجع والمصادر في علوم القرآن، والأكثر منها تفتقد

(١) مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم. د. حسن عزوزي. ص٩.

الصحة، مثل كتاب المصاحف لابن أبي داود، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والفهرست لابن النديم، وفي المقابل لا نجد في مناهجهم ذكرًا للمصادر المعتمدة والصحيحة ككتب الصحاح والسنن، أو مقدمة تفسير القرطبي ومقدمة ابن عطية، كذلك لا يوجد ذكر لكتب القراءات الصحيحة المعتمد مثل كتب ابن الجزري كالنشر في القراءات العشر .....؛ فهو شيخ الصنعة في علم القراءات، وهو خاتمة المحققين فيه، أو كتاب أبي شامة: المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بكتاب الله العزيز، والبرهان للزركشي، أو التبيان للنووي، أو فتح البارئ لابن حجر العسقلاني،

يقول د. السباعي" إن المستشرقين ينقلون من كتب الأدب ما يحكمون به في قضايا الفقه، وهم يصححون ما يقوله الدميري في كتاب الحيوان، ويكذبون ما يرويه مالك في الموطأ وأمر آخر يكشف لنا عن أساس ثالث من أسس النقد والبحث عند هؤلاء المستشرقين هو إفراطهم في اختراع العلل والأسباب والحوادث التي يدرسونها اختراعًا ليس له سند إلا التخيل والتحكم"[١].

ثم إن المصادر التي اعتمدها المستشرقون مكررة عند كل واحدٍ منهم، مما يدل أن الواحد منهم بنى فكرته على فرضية، وقلّده الآخرون دون تحري البحث والدقة.

من جهة أخرى يلاحظ أن المصنفات المعتمدة لدى المستشرقين المعاصرين هي نفسها التي كان يعتمدها أسلافهم من المستشرقين القدامى، وذلك بالرغم من صدور كثير من الكتب الموثوق بها والمعتمدة في علوم

(١) ينظر: السنة ومكانتها فى التشريع. مصطفى السباعي. ص ١٨٨-١٨٩ .

القرآن، وهذا أمر يسهل التأكد منه من خلال الاطلاع على لوائح المراجع المعتمدة لدى المستشرقين المعاصرين مقارنة بما جاء لدى القدامى منهم.

وبذلك يمكن القول بأن حصر المصادر ونوعيتها يكاد يكون تقليدًا في البحث الاستشراقي، وهو يرمي إلى الإبقاء على الشبهات والافتراءات نفسها التي نسجها المستشرقون الأوائل"[1].

٣ -اعتماد المنهج الافتراضي:

مثل مزاعم جولدزيهر أن اختلاف القراءات منشؤه الخط العربي وخلوّه من إعجام الحروف ونقطها وشكل الحروف الذي يدل على إعرابها؛ وهي دعوة لا تقوم على منهجية علمية صحيحة، وإنما دعوى تنطلق من افتراض علّة ثم وضع ما يسندها من روايات ضعيفة أو غير صحيحة .

لقد رسمت الكلمات في المصحف من غير نقط ولا شكل على الرسم الأول لتحتمل القراءات المتعددة؛ ففي رسم كلمة "ملك يوم الدين "في سورة الفاتحة رسمت من غير ألف لتحتمل القراءتين "مالك "بإثبات الألف و"ملك "بحذف الألف.

ومثال آخر على الشكل والإعجام والحركات، ففي كلمة خطف، يخطف، ففي لغة العرب وجهان :خَطِفَ يخطَف من باب عَلِم يعْلَم، وخَطَف يخطِف من باب عَمِد يعْمَد[2]، ولكن القراء أجمعوا على قراءتها بكسر الطاء في الماضي وبفتحها في المضارع والرسم يحتمل القراءتين، فلو كان منشأ اختلاف القراء بالشكل والإعجام للزم أن يكون فيها قراءتان، ولكن ذلك لم يحصل؛ لأن القراءة تثبت بالتلقي والسماع والمشافهة.

---

(١) مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم. د. حسن عزوزي. ص ١٤.

(٢) عمدة الحفاظ. علي بن يوسف الشهير بالسمين الحلبي مادة (خ ط ف) ١/ ٥١٤.

ولو كان خلو المصاحف من الشكل والإعجام سببًا في تعدد القراءات كما زعم لكان كل قراءة يحتملها رسم المصحف صحيحة حُكم بقرآنيتها، وهي دعوى مرفوضة علميًا، ومثاله قوله تعالى :وكان عند الله وجيهًا، وفي قراءة شاذة غير صحيحة وكان عبدًا لله وجيهًا، فعلى دعوى جولد زيهر، أنها قراءة قرآنية؛ لأنّ رسم المصحف يحتملها، وفي الحقيقة هي قراءة شاذة لا يقرأ بها لانقطاع سندها.

إنّ كل فرضية يقولها المستشرقون ينطلقون من فكرة واهية أو فرضية خاطئة يجعلونها منطلقًا لكتاباتهم، هي إثبات بشرية القرآن ثم يبنون عليها دعاوى وفرضيات خيالية.

ومن زعمهم المنهج الافتراضي في سبب اختلاف القراءات خلو المصاحف من النقط واستشهد جولد زيهر كما تقدم بمثال، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾[1] الشاهد فى كلمة " إياه " ضمير نصب منفصل للمفرد الغائب الذكر، قرأها بعضهم بفتح الهمزة والباء الموحدة بدلاً من كسر الهمزة والياء المثناة التحتية المشددة " أباه " أي: وعدها إبراهيم عليه السلام أباه[2].

وأما قراءة "أباه " فهي قراءة شاذة لم يقرأ بها أحد من القراء المعتبرين، وعلى الرغم أن قراءة " أباه " قراءة يحتملها رسم المصحف، ولها معنى صحيح، وتوجيه لطيف من حيث اللغة، إلا أنها قراءة غير معتبرة لانقطاع

(١) سورة التوبة: آية :١١٤.

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي ص ٨

سندها وعدم ثبوت النقل والتلقي والسماع، وتحرم القراءة بها بإجماع المسلمين، فتبين أن قوله غير مستقيم علميًا، وهو حجة عليه، فليست القراءات ناشئة عن الخط وتجريده من النقط والشكل، بل الرواية والسند والسماع هو الحكم بذلك.

و مثال آخر على جهل المدرسة الاستشراقية وفرض فرضيات خاطئة مؤيدةٍ بأدلة وبراهين لا يقبله العقل الصحيح، تعليق جولد زيهر على قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾[1] حيث يجعل اختلاف القراءات مرده إلى اختيار من القراء، فيقول: وربما كان مفسرون قدماء معتد بهم وذكر قتادة المتوفى سنة ١١٧ هـ حجةً على ذلك، قد وجدوا هذا الأمر بقتل أنفسهم، أو بقتل الآثمين منهم أمرًا شديد القسوة، وغير متناسب مع الخطيئة، فآثروا تحلية الحرف الرابع من هيكل الحروف الصامتة " **فاقتلوا أنفسكم**" بنقطتين من أسفل بدل التاء المثناة من أعلى، فقرؤوا " **فأقيلوا أنفسكم** " بمعنى حققوا الرجوع عما فعلتم أي: بالندم على الخطيئة المقترفة، وهذا المثال يدل فعلاً على أن ملاحظات موضوعية قد شاركت في سبب اختلاف القراءة خلافًا للأمثلة السابقة التي نشأ الاختلاف فيها من مجرد ملابسات فنية ترجع إلى الرسم[2].

والعجيب منه أنه يبني فرضيته على أغلاط وأوهام، فقراءة فأقيلوا أنفسكم لم ينقلها أحد من القراء المشهورين، وليس لها سند يعتمد عليه،

---

(١) سورة البقرة آية: ٥٤.

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي ص ٨، القراءات في نظر المستشرقين ص ٢٣.

وقتادة ليس من القراء ولم تنسب له قراءة من القراءات إلا ما نسبه جولدزيهر .

بل نقل عن قتادة تفسيرًا يخالف القراءة المنسوبة إليه، قال ابن جرير الطبري: قال قتادة في " فاقتلوا أنفسكم "، قاموا صفين فقتل بعضهم بعضًا حتى قيل لهم كفوا. قال قتادة: كانت شهادةً للمقتول وتوبةً للحيّ[(١)].

وقال ابنُ كثير في تفسيره: قَامُوا صَفَّيْنِ فَقَتَلَ بَعْضهمْ بَعْضًا حَتَّى قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا، قَالَ قَتَادَةَ: كَانَتْ شَهَادَة لِلْمَقْتُولِ وَتَوْبَة لِلْحَيِّ[(٢)].

وهذا يؤكد غلط ما نقله جولد زيهر ونسبه إلى قتادة، وهي قراءة لم يقلها أحد من القراء، وهي مدسوسة على قتادة، لا يلتفت إليها.

تأمل منهج المستشرقين وانظر إلى الأغلاط والأوهام التي وقعوا فيها، فهي تكشف زيفهم وأكاذيبهم، وعدم تحري الضبط والأمانة في كتابة أبحاثهم، فهي تفتقد المصداقية والدقة بل مليئة بالأكاذيب والدعاوى الواهية التي لا تستند على أسس علمية.

٤ - التعصب البغيض والهوى الشخصي:

وقد أشرت إليه عند الحديث عن دوافع الاستشراق، وكان من الأمانة العلمية في المنهج العلمي أن تكون الأبحاث مجردة عن أي دافع مادي أو معنوي، بل المطلوب من أصحاب الأقلام النزيهة أن تكون كتاباتهم موضوعية فيه تأصيل علمي، ولكن كانت دوافع " نولدكة " و" جولدزيهر"

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٢٢٨/١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٩٢/١.

و" جيفري" منطلقة من تعصب بغيض وهوى شخصي، وهي فجوة قاصمة في المنهج العلمي تفقد مصداقيته ونزاهته.

وإذا كان الغرب يمدح نفسه بالعقلية الناضجة الحرة، والحيادية العلمية النزيهة، والمنهجية العلمية المجردة التي لا تتأثر بالضغوط السياسية أو المادية؛ فقد جانبه الصواب عند البحث في تعدد القراءات القرآنية؛ فقد وقع تحت تأثير النوازع العصبية والحقد والكراهية التي يحملها في قلبه منذ مئات السنين، وهو يؤكد دوافع الاستشراق، ومن المسلمات في أسس البحث العلمي أن المنهجية البحثية القائمة على التعصب البغيض والميل الشخصي غير مقبولة علميًا، بل يحكم عليها بالفشل، وهي مرفوضة في موازين البحث العلمي.

٥ - الجهل وعدم المعرفة بالقراءات القرآنية:

علمُ القراءات علم تخصصي دقيق، شأنه شأن العلوم الأخرى، كعلم الحديث وعلم أصول الفقه، ومن تكلم في غير فنه أتى بالعجائب، والإنسان عدو ما يجهل، يحب المعتاد والمألوف ويعادي المجهول، وقد وقعت المدرسة الاستشراقية في هذه المحاذير؛ فهم جهلوا علم القراءات والسبب الذي قامت عليه القراءات، وجهلوا أقسام القراءات وطرق نقلها وضبطها، فعاملوا الضعيف والشاذ من القراءات معاملة الصحيح المتواتر، وجهلوا حكمة تعدد القراءات ولم يعرفوا لهجات العرب واختلاف ألسنتها، ولم يقفوا على منهجية علماء القراءات والروايات في ضبط الحروف القرآنية، وزاد جهلهم في الرسم العثماني ومنهجية كتابته وضبطه ورسمه، ولم يقفوا على كيفية جمع القرآن، فوقعوا في تخبط وخلط.

ولو أنهم كلفوا أنفسهم البحث والتحقيق والتدقيق والموضوعية والحيادية، لرجع البصر خاسئًا، بل سيجدون فطرتهم تأبى الكذب و الخلط .

ومن جهل المدرسة الاستشراقية بعلم القراءات أو تعمدها بذلك؛ خلطها بين الروايات الصحيحة والروايات الشاذة التي لم يعرف نقلها ونسبتها، بل هي قراءة مردودة لعدم توفر شروط قبول القراءة الصحيحة فيها.

أما الخلط والجهل في منهج المستشرقين، فهو واضح بين، ففي الأمثلة التي ذكرها جولدزيهر تكشف جهلهم وخلطهم بين القراءات الصحيحة والشاذة.

- **المبحث الثاني: المناهج البحثية في تعدد القراءات عند المحققين:**

ويحتوي على مطلبين:

المطلب الأول: منهج المحققين القراء في نقل وضبط القراءات القرآنية:

لم تعرف البشرية كتابًا حظي بالعناية والضبط على مدى قرون زمنية طويلة بمثل ما حظي به القرآن الكريم، من حيث نقله وضبطه، وترتيل تلاوته وتحقيق حروفه.

وقد كتب الله على نفسه وصدق وعده بأن يبقى القرآن الكريم محفوظًا من عبث العابثين وانتحال المبطلين، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾[1]، وقال أيضًا ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾[2]

(١) سورة الحجر آية: ٩.

(٢) سورة فصلت آية :٤٢.

فالقرآن مازال بحروفه وكلماته ورسمه منذ نزوله على الرسول ﷺ وإلى يومنا وسيبقى إلى يوم القيامة مصاناً محفوظا بقراءاته وتجويده ورسمه، تنقله الأجيال جيلاً بعد جيل، وقد سخر الله لحفظ كتابه الحفظة والقراء.

أولاً: المنهج العلمي في نقل وضبط القراءات عند المحققين:

وكان القرآن الكريم بقراءاته ورواياته موجودًا يقرئ به قبل أن تكتب المصاحف العثمانية في عهد الخليفة عثمان بن عفان، بل كانت تتنزل مع نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى جبريل على قلب النبي ﷺ، فمردها السماع والتلقي والمشافهة، ولا دخل لأحد من البشر كائنًا من كان، حتى إنّ الرسول ﷺ لا يملك فيها شيئًا، بل هو ناقلٌ أمينٌ عن الوحي عن ربّ العالمين، ولو تَقوَّل على الوحي بكلمة أو بحرف لكان أمرًا عظيمًا عند الله تعالى، ويشهد لذلك قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[1]، ومن باب أولى أنه ليس لخاصية الخط العربي الذي كتبت به المصاحف سببًا في تنوع القراءات واختلاف القراء .

وقد نزل القرآن الكريم وكانت الجزيرة العربية قبائل متعددة مختلفة اللهجات، متباينة الألفاظ، وقد برزت لهجة قريش على غيرها من اللهجات؛ فهي أغزر اللهجات العربية مادةً، وأغناها ثروةً، وأقدرها على التعبير والوصف بألفاظ وأساليب شتى.

وعلى تلك اللغة نزل القرآن قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[2]، وكتب حسب اللهجة السائدة المنتشرة؛ لأنها اللهجة المثالية عند معظم العرب، وهذا باعتراف الفصحاء من غير قريش كما تقدم .

---

(١) سورة الحاقة آية :٤٤.

(٢) سورة الشعراء آية: ١٩٥

ولما كانت الألسن العربية المختلفة قد تعوّدت النطق حسب البيئة التي نشأت بها، ومن الصعب على العربي أن يتحول عن لهجته التي نشأ بها، لاسيما أنه تعود النطق عليها منذ يفوعة عمره وحتى شيخوخته، تجلّت رحمة الله بنزول القرآن على أحرف متعددة تيسيرًا لكل العرب قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

وكان النبي ﷺ يقرئ الصحابة القرآن حسب لهجاتهم التي درجوا عليها، روى مسلم في صحيحه: " أن جبريل عليه السلام قال:إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرفٍ، فأيما حرفٍ قرؤوا عليه، فقد أصابوا"[2].

وفي هذا الحديث وغيره من الأحاديث في نزول القرآن بحروفه السبعة تكرار لكلمة اقرأ، ففي النصوص السابقة، إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك، اقرأ يا هشام،: اقرأ يا عمر، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه" دليل أن القراءات تثبت بالتلقي والسماع والمشافهة والتلقين.

ثم رجوع الصحابة إلى النبي ﷺ ليحكم بينهم ويرفع الخلاف برهان واضح أن القراءات ليست موكولة لأحد من البشر، ولا مردها إلى الرغبة الشخصية والهوى المتبع كما زعم جولدزيهر.

إن أول أمر في نقل القرآن الكريم بقراءاته هو النقل المتواتر الذي يحكمه السماع والتلقي، وكان بدء التلقي منذ نزول القرآن من جبريل عليه السلام إلى الرسول ﷺ، وأكّد السماع والتلقي من خلال مدراسة جبريل القرآن كل رمضان، فتلّقى جبريل من اللوح المحفوظ عن رب العالمين، وتلّقى الرسول

(١) سورة القمر آية: ١٧.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٢٠٣/٢.

ﷺ من جبريل عليه السلام، ثم تلّقى الصحابة عنه، ثم تلّقت الأجيال جيلاً بعد جيل.

لقد سمع الصحابة قراءة " ملك " و" مالك " و" نشرا " وبشرا، " فتبينوا "" فتثبتوا"، من الرسول ﷺ وهكذا تلّقاها من جبريل، ويشهد لذلك قوله ﷺ عندما اختلف عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم حيث أنكر الأول قراءة الثاني، فاحتكما عد الرسول ﷺ فقال للأول: اقرأ فقرأ فقال: هكذا أنزلت، وقال للثاني: اقرأ فقرأ ؛ فقال هكذا أنزلت، ثم قال لهما وللأمة إلى يوم القيامة:" **إن هذا القرآن أنزل على سبعة أخرف فا قرؤوا ما تيسر منه**"(١)، ولم يقل: هكذا رسم أو كتب أو هكذا رسمت أو كتبت، وهو يؤكد أنّ الأمر مرده إلى التلقي والسماع والنقل.

ولما اجتمعت الجيوش العراقية مع الجيوش الشامية عند فتح أرمينية زمن الخليفة الراشدي عثمان بن عفان رضي الله عنه، ظهرت بعض بوادر التعصب، ولم تتسع صدورهم لتقبل توسعة القراءات على الأمة، وكان الشاميون يقرؤون بقراءة أبي الدرداء والعراقيون يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود، فاختصموا وكفّر أحدهما الآخر، فنُقل الأمر لخليفة المسلمين، وقرر عند ذلك جمع القرآن في مصحف واحدٍ ليكون حكما بين المسلمين، ومتسعًا للأحرف السبعة التي بها أنزل.

كان الخليفة عثمان رضي الله عنه_المشرف على الجمع، فتم نسخ المصاحف من صحف أبي بكر رضي الله عنه، **وامتاز هذا الجمع بما يلي**(٢):

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ينظر: مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه د. عدنان زرزور ص ١٢١.

- كتب القرآن الكريم بلغة قريش لأنه نزل بلسانهم .
- تجريد المصاحف العثمانية من كل ما ليس قرآنًا، كالشروح والتفاسير التي كتبها بعض الصحابة على صحفهم .
- تجريد المصاحف من النقط والشكل والإعجام، وذلك ليفسح المجال لقراءة القرآن بأي حرفٍ من الحروف السبعة .
- إذا كان الحرف القرآني يقرأ بأكثر من قراءة متواترة "وتعذر رسمه في الخط ليحتمل كل الوجوه القرآنية رسم في مصحفٍ برسمٍ وفي الآخر برسمٍ ليدل على القراءة الأخرى"[١] نحو قوله: ﴿ **تجري تحتها الأنهار** ﴾ في سورة التوبة[٢]، فكتب في بعض المصاحف بزيادة (من) والبعض الآخر بحذفها لتحتمل القراءتين[٣].

وقد كتب القرآن من غير شكل ولا تنقيط ليجعلوا الخط فيه سعة يحتمل الأحرف السبعة، فأي كلمةٍ يحتمل رسمها أكثر من قراءة، كتبت من غير شكل ولا تنقيط نحو:بعد الجمع نسخ عثمان بن عفان ﷺ منه نسخًا ووزعها على الأمصار وجعل مع كل مصحف قارئًا يقرؤهم القراءة التي أخذها من رسول الله ﷺ أو من الصحابة الموافقة للهجة التي درجوا عليها، وتركوا من القراءة مما كان لا يقرئ بعد العرضة الأخيرة وكان مخالفًا لرسم المصحف، ومعنى ذلك أنّ القراءة تكون مقبولة بشرط تواترها وصحة نقلها عن الرسول ﷺ وموافقته لرسم المصحف.

---

(١) المرجع السابق ص/١٢٣.

(٢) آية: (١٠٠).

(٣) ينظر مناهل العرفان ٢٥٢/١ ،.

أراد عثمان بن عفان من هذا الجمع أمرين هما:

١- إعطاء الصفة الشرعية للقراءات القرآنية المتواترة وأنها وحي من الله عز وجل.

٢- حماية النص القرآني بقراءاته المتواترة من أي تحريف أو تبديل.

٣- استبعاد أي كلمة لا تطابق النص الأصلي للقرآن الكريم.

٤- إعطاء المصحف العثماني الصبغة الدولية الذي يحتمل رسمه القراءات المتواترة.

لقد مضت المائة الأولى من الهجرة والناس يتناقلون القرآن سماعًا ومشافهةً، إما من الصحابة عن رسول الله ﷺ أو من التابعين عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

بعد الصدر الأول من الإسلام اتسعت البلاد، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فاحتاج الأمر إلى تفرغ عددٍ من الضابطين المحققين في ضبط القراءات القرآنية، وقد اتفقت الأمة على اختيار عددٍ من المحققين والضابطين لضبطهم وشهرتهم وورعهم، وكانوا موزعين في الأمصار التي وزعت إليها المصاحف، فنسبت إليهم القراءة نسبة اشتهار وضبط وليس ابتداعًا، وهم القراء العشرة المعروفون.

ولما بدأ عصر التدوين والتصنيف بدأ علم القراءات يحتل الصدارة في العلوم وذلك لصلته الشديدة بكتاب الله، فقام العلماء والقراء يضعون مقدمات وقواعد وأسس لعلم القراءات، ثم وضعوا شروطًا في قبول القراءة الصحيحة من الشاذة، هي:

١- صحة السند، الذي يؤكّد سماع القراءة عن رسول الله ﷺ.

٢- موافقة القراءة لرسم المصحف الذي أجمعت عليه الأمة في خلافة عثمان ﷺ مع ملاحظة أن الصحابة الذين نسخوا القرآن في المصحف من الوثائق النبوية في خلافة عثمان، حيث نقلوه كما هو مكتوب في الوثائق النبوية بلا تغيير أو تبديل، وقد سارت رواية الرسم جنبًا إلى جنب مع رواية القراءة[1]

٣- أن تكون القراءة موافقة لوجه من وجوه تراكيب اللغة العربية ؛ لأن الله أنزل كتابه بلسان عربي مبين.

فإذا تخلف شرط من هذه الشروط فإنّ تكون القراءة غير مقبولة ولا يعتد بها، وعملاً بهذه الضوابط تميزت القراءات الصحيحة من القراءات غير الصحيحة، أو ما يسمى بالقراءات الشاذة، أو الباطلة.

ولم يكتف العلماء بهذا، بل وضعوا مصنفات عديدة حصروا فيها القراءات الصحيحة، ووجهوها كلها من حيث اللغة، ومن حيث المعنى، وبقيت القراءات المتواترة تنقل إلينا بأسانيد صحيحة من الشيوخ الضابطين ابتداءً بالرسول ﷺ وانتهاءً بالتابعين أو من تبعهم إلى يومنا هذا، ثم دونت في الكتب والمصنفات الصحيحة التي لا يذكر مؤلفوها إلا الصحيح منها..

كان عمل المحققين من القراء في نقل وضبط وتدوين القراءات المتواترة قائمًا على منهجية علمية ليس فيها قفزات أو ثغرات؛ متطابقةً مع معايير البحث العلمي المعاصر.

---

(١) مختصر التبيين لهجاء التنزيل. أبو داو سليمان بن نجاح. قسم الدراسة تحقيق د. أحمد شرشال.١/ ١٣٧ ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤٢١هـ.

ثانيًا: أهمية الإسناد في صحة القراءة عند منهج المحققين:

كان الإسناد ولا يزال مهمًا في نقل القراءة الصحية، وقد اهتم القراء بالإسناد وذلك لكونه طريق معرفة القراءة الصحيحة، وأول أدلة أحكام الشرع في الإسلام، ولشرف القرآن الكريم جاء شرف السند، كما أنّ شرفت الإسناد آت من ثمرته وغايته، وهي تمييز ما صح من قراءة النبي ﷺ عما لم يصح عنه، كما أن الإسناد يعد نصف علم القراءة لأنّ القراءة المتواترة متن وإسناد.

ويشترط في نقل القراءة التلقي والأخذ مشافهة عن المؤدي، فالأصل في القرآن الكريم التنقل من الصدور إلى الصدور؛ لا من السطور إلى الصدور.

وفي حديث عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم عند اختلافهم في القراءة، سمعت هشام ابن حكيم يقرأ سورة "الفرقان" في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكدت أُساوره - أي أثب عليه - في الصلاة، فصبرت حتى سلم، فَلَبَّبْتُه بردائه - أي أمسك بردائه من موضع عنقه - فقلت: من أقرأك هذه السورة ؟ قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: كذبت[1].

فأهمية السند جلية في قول عمر: من أقرأك هذه .

والإسناد ركنٌ من أركان القراءات الصحيحة للقرآن الكريم.

قال الإمام ابن الجزري - وهو أحد المحققين في علم القراءات -: "وإذا كان صحة السند من أركان القراءة تعين أن يُعرف حال رجال القراءات كما يُعرف أحوال رجال الحديث"[2].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٢٠٣/٢.

(٢) النشر في القراءات العشر ١٩٣/١

وقد عدَّ علماء القراءات صحة السند في القراءة شرطًا من شروطها:

يقول الإمام ابن الجزري: "إن كل قراءة تواتر سندها إلى رسول الله ﷺ ووافقت خط المصحف العثماني و لو احتمالا و وافقت العربية بوجه من الوجوه المعتبرة فتلك هي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها و لا يحل إنكارها سواء نقلت عن الأئمة السبعة أو العشرة وما لم تجتمع فيه هذه الشروط الثلاث فهي شاذة لا يقرأ بها أيا كان الإمام الذي نقلت عنه"(١)، ويقصد بصحة السند أن يروي القراءة العدل الضابط عن مثله.

قال ابن الجزري: "أن يروي القراءة العدل الضابط عن مثله كذا حتى تنتهي، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له غير معدودة عندهم من الغلط أ و مما شذ به بعضهم(٢).

ولدراسة الأسانيد التي نقلت القراءات القرآنية، وضع علماء القراءات منهجًا علميًا وميزانًا يعرفون من خلاله رجال السند طبقةً طبقةً.

سمات منهج دراسة الأسانيد:

اعتمد المحققون من القراء في اختيار الأسانيد والطرق الصحيحة عن القراء العشرة على منهج علمي، فمثلاً نجد أن ابن الجزري يقول عن منهجه العلمي في كتابه النشر:

"وها أنا أذكر الأسانيد التي أدت القراءة لأصحاب هذه الكتب من الطرق المذكورة وأذكر ما وقع من الأسانيد بالطرق المذكورة بطريق الأداء فقط حسبما صح عندي من أخبار الأئمة قراءةً قراءةً وروايةً روايةً وطريقًا طريقًا"(٣).

---

(١) النشر في القراءات العشر ٩/١.

(٢) المرجع السابق ١٠/١.

(٣) النشر في القراءات العشر ٩٨/١.

ويتلخص من كلام ابن الجزري أن سمات انتقاء الأسانيد والطرق اعتمد على الآتي:

١- أن يكون الإسناد المنتقى بطريق الأداء - أي بتلاوة القرآن كله- و لا يكون برواية الحروف.

٢- أن يكون رجال الإسناد عدولاً ثقاتًا.

٣- أن تحقق معاصرة الراوي لشيخه وتلميذه.

٤- أن تتحقق الملاقاة بين الراوي وشيخه.

يقول في كتابه النشر: "وهي أصح ما وجد في الدنيا وأعلاه ولم نذكر فيها إلا ما ثبت عندنا أو عند من تقدمنا من أئمتنا عدالته متحقق لقيه لمن أخذ عنه وصحت معاصرته، وهذا التزام لم يقع لغيرنا ممن ألف فى هذا العلم.

وهذه الشروط هي أعلى درجات الضبط والأمانة في النقل، وهي لم تحقق في كتب القراءات من قبل، وإنما اعتمد عليها ابن الجزري في كتابه، يقول: "وهذا التزام لم يقع لغيرنا ممن ألَّف فى هذا العلم"(١).

المطلب الثاني: الفرق بين المنهجين:

تقدم منهج المستشرقين في شبههم حول القراءات القرآنية والمزاعم التي افترضوها وبنوا عليها دعواهم؛ وهو منهج غير مقبول في المجالات العلمية؛ لأنه يفتقد لأساسيات البحث العلمي وقواعده وأصوله؛ بينما كان منهج المحققين من القراء قائمًا على قواعد وأصول البحث العلمي؛ فكانت الفوارق بارزة في الآتي:

(١) النشر في القراءات العشر ١/١٩٣.

١- اعتماد منهج المحققين على التلقي المتواتر و اعتماد منهج المستشرقين على الافتراض الخاطىء

إنّ تلك الأمثلة التي سبق ذكرها في المنهجين تُبَيِّن الفرق الكبير والبون الشاسع بين منهج القراء المحققين القائم على الأصول العلمية والقواعد البحثية التي تقبلها العقول الصحية والطبائع السليمة، والمتفقة مع أصول البحث العلمي، ومنهج المستشرقين الانتقائي الذي لم يستند على قواعد البحث العلمي.

وقد كان الأئمة القراء متمسكين بالنقل القائم على التلقي والمشافهة المنضبط بإسنادٍ متصل منهم إلى النبي ﷺ، وكان كل واحد منهم يقرأ تلميذه حسب ما تلقاه من شيخه، وقد يقرئ تلميذين بقراءتين مختلفتين تبعًا لاختلاف ما تلقاه من شيخه، روي عن حفص أنه قال: قلت لعاصم: إن أبا بكر شعبة يخالفني في القراءة، فقال: أقرأتك بما أقرأني به أبو عبد الرحمن السلمي عن على رضي الله عنه، وأقرأت أبا بكر بما أقرأني به زر بن حُبيش عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه[1]، فالتلقي والمشافه وتسلسل القراءة بالإسناد الصحيح هي المقدم في منهجهم.

ولم يكن الرسم وحده منشأ اختلاف القراءة، ولكن اعتمادهم على النقل والتلقي والمشافهة، ففي كلمة الرضاعة التي تكررت في القرآن في موضعين، الأول في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴿٢٣٣﴾ ﴾[2]، والثاني في قوله: ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ

(١) غاية النهاية ١/٢٥٤.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٣١.

وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴿٢٣﴾ ﴾[1]، ففي راء الرضاعة تجوّز اللغة الفتح والكسر في الراء والرسم يحتمل، ولكن أجمع القراء على القراءة في الموضعين بفتح الراء، فلو كان منشأ القراءة رسم الكلمة كما زعموا لكان ينبغي أن تقرأ بالفتح والكسر، وهذا لم يحصل لعدم ثبوت السماع والنقل والتلقي.

ومِنْ ذلك لفظ (يحزن) في القرآن حيثما ورد قرأه نافع بضم الياء وكسر الزاي إلا موضع سورة الأنبياء ﴿ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾[2] فقرأها نافع كبقية القراء بفتح الياء وضم الزاي، ومع أن المعنى الذي وقد يتساءل المتأمل في هذا الاختلاف لماذا اختلفت القراءة في سورة الأنبياء عن المواضع الأخرى في القرآن، رغم أن الكلمة واحدة والمعنى واحد، ويجاب على ذلك بأن الرواية والنقل هكذا جاءت فتلقاه نافع وأداها كما تلقاها.

٢- النزاهة والأمانة العلمية في منهج القراء والتضليل والغش في منهج المستشرقين.

من قواعد البحث العلمي المنهجي اعتماده على الموضوعية والنزاهة والأمانة في النقل والضبط والإحالة العلمية؛ وأي خلل في هذه القيود يُفقِد البحث مصداقيته وأمانته، وبالتالي لا قيمة له في المناقشات العلمية، وفي الموازنة بين المنهجين يتضح منهج القراء المنضبط بقواعد البحث وأصوله، بخلاف منهج المستشرقين البعيد عن النزاهة العلمية والموضوعية والحيادية.

---

(١) سورة النساء آية: ٢٣.

(٢) سورة الأنبياء آية: ١٠٣.

ومن الأمانة عند المحققين في نقل القراءة أنهم قدموا النقل وإتباع الأثر على كل شيء ولو خالفت قواعدهم اللغوية التي وضعوها؛ وهاهم القراء العشر قد بلغوا الإمامة والصدارة في علم النحو واللغة، واشتهر عن بعضهم أنّ له مذهبًا خاصًا في النحو، كحال الكسائي، وأبي عمرو البصري، ولكن في ضبطهم للقراءة والنقل عن شيوخهم كانوا ضابطين للنقل لا يحيدون عن التلقي قيد أنملة.

قال ابن الجزري: "وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية إذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة لأنَّ القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها"(١).

سأل الأصمعي المازني ما تقول في قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾(٢) فقال المازني يذهب سيبويه إلى أن الرفع فيه أقل من النصب في اللغة العربية لاشتغال الفعل بالضمير(٣) .

وليس هناك شيءٌ هو بالفعل أولى، ولكن أبَتْ القراء إلا النصب، فنحن نقرؤها كذلك إتباعًا لأنَّ القراءة سنة متبعة، فلينظر إلى التمسك بالنقل والأمانة والثقة عند أبي عمرو البصري حيث تجيز اللغة القراءة بالرفع، ولكنها قرأها بالنصب إتباعًا للأثر(٤).

---

(١) النشر في القراءات العشر ١١/١.

(٢) سورة القمر آية :٤٩.

(٣) أخبار الزجاجي ورقة ٣٦.

(٤) رسم المصحف العثماني ص ٤١.

وهل يمكن أن يقرأ رسول الله ﷺ أو الصحابة أو التابعون كتاب الله بالتشهي وقد وصف كتابه بقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[1] وهل يستقيم عقلاً أن يكل الله القرآن إلى العباد يقرؤون حسب اختيارهم واجتهادهم، وهم متفاوتون في الأذهان، أليس هذا تناقضًا وتغييرًا للحروف وتبديلاً لكلام الله.

ولو لم يكن اختلاف القراءات نابعًا من تنزل الوحي والتلقي والمشافهة والسماع للزم أن يكون بعض القراءات من كلام البشر، وهذا يتنافى مع وعده بالحفظ، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾[2] وقوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[3] ثم أين الإعجاز الذي تحدى به العرب، ولو كان ذلك لكان سببًا في إتيان العرب بقرآن مثله أو أحسن منه، وهو لم يحصل في تاريخ العرب .

وليتأمل منهج القراء المحققين المسلمين في ضبط ونقل القرآن كيف اتبع فيها المنهجية العلمية، ومنهج المستشرقين المفتقد لها، وستجد الفرق والبون بينهما.

٣- اعتماد القراء المحققين على المنهج العلمي واعتماد المستشرقين على التسرع الاستنتاجي من غير مستند علمي صحيح:

كان منهج القراء المحققين منهجًا علميًا في نقل القراءات وتدوينها ووضع المعايير العلمية في قبول القراءة المتواترة الصحيحة؛ وقد بدا واضحًا

---

(١) سورة الحاقة آية: ٤٤.

(٢) سورة الحجر آية: ٩.

(٣) سورة فصلت آية :٤٢

منذ جمع القرآن وتدوينه في عهد عثمان؛ فقد اعتمدت اللجنة المكلفة بالجمع على منهج علمي صحيح من غير ارتجالية أو تسرع؛ وسار على هذا المنهج المحققون من التابعين ومن بعدهم في نقل القراءات وتدوينها.

بنما يلاحظ منهج المدرسة الاستشراقية على التسرع وغياب المنهج العلمي الصحيح بعلم القراءات أو تعمدها بذلك، فهي تخلط بين الروايات الصحيحة وبين الروايات الشاذة التي لم يعرف نقلها ونسبتها، بل هي قراءة مردودة لعدم توفر شروط قبول القراءة الصحيحة فيها.

ولكن في النهاية اعترف بعض المستشرقين أنّ أبحاثهم لم تصل إلى أمور قطعية حاسمة، وهاهو نولدكة يعترف في آخر حياته بهذا الأمر، حين سئل مرة إن كان يشعر بالندم، لأنه لم يمض تلك العقود من السنين في دراسة تعود بالفائدة على الجنس البشري كالطب والكيمياء، أو أي فرع آخر غير الدين واللغات والفلسفة؟ فأجاب بقوله: "إذا كان من ندم فلأنني درست علومًا لم أظفر منها في النهاية بنتائج قاطعة وحاسمة"(١).

• **خاتمة:**

وفي ختام البحث توصلت إلى نتائج مهمة أجد من المناسب تلخيصها في عدة نقاط هي:

١- حفظ الله لكتابه العظيم من تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وهو وعد قطعه الله على نفسه بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾(٢).

---

(١) دراسات في الاستشراق ومناهجه د حسن عزوزي. ص ٥٣.

(٢) سورة الحجر آية: ٩.

٢- نزول القرآن على سبعة أوجه تخفيفًا للأمة الإسلامية ورحمةً بها، وهي مأمورةٌ أن تقرأ بأي وجه شاءت.

٤- اعتماد منهج القراء في ضبط ونقل القرآن بقراءاته المتعددة على أسس موضوعية ودراسة علمية منهجية، بلغت الغاية القصوى في الضبط والتحقيق، والتلقي والمشافهة، قد تناقلتها الأمة بأسانيد متواترة.

٥- الخلط والتحريف وغياب المنهجية العلمية في المدرسة الاستشراقية أثناء دراساتهم القرآنية.

٦- جهل المستشرقين في علم القراءات القرآنية ورسم المصاحف، فكان سببًا في الوقوع في الأخطاء العلمية المنهجية .

٧- قيام منهج المستشرقين في الدراسات القرآنية على الانتقاء والافتراض من غير الرجوع إلى المراجع العلمية الصحيحة؛ وهم يفعلون ذلك لاعتقادهم ببشرية القرآن.

٨- كان منهج المستشرقين قائمًا على تعمد الكذب وعدم تحري الدقة، وغياب الأمانة، وضعف الضبط العلمي في أبحاثهم ومصادرهم التي اعتمدوا عليها.

٩- السعي في تشكيل مؤسسات علمية مهمتها رصد ومتابعة كل ما يكتبه المستشرقون عن القرآن الكريم من أبحاث أو مقالات، ثم الرد عليها وبيان كذبها .

• **ثبت المصادر والمراجع:**

القرآن الكريم.

١- إتحاف الفضلاء البشر أحمد بن محمد الدمياطي، مكتبة المشهد الحسيني، القاهرة. ط١/١٩٦٧م

٢- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، ط ثالثة، ١٩٥١ م .

٣- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي مالك بن نبي. بيروت: دار الإرشاد ط١ ،:١٣٨٨- ١٩٦٩،

٤- التيسير، أبو عمرو الداني، دار الكتاب العربي، بيروت. ط٢، ١٤٠٤- ١٩٨٤.

٥- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري . محمد حمدي زقزوق. الدوحة، كتاب الأمة ١٤٠٥- ١٩٨٥ .،

٦- الاستشراق: المعرفة السلطة الإنشاء" أدوراد سعيد، ترجمة كامل أبو ديب، ط ١، بيروت ــ مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٨١.

٧- الاستشراق والمستشرقون د. مصطفى السباعي . المكتب الإسلامي ط١، ١٤٠٥- ١٩٨٥ .

٨- الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين . أبو الحسن علي الحسني الندوي. بيروت: مؤسسة الرسالة ط٢، ١٤٠٣ - ١٩٨٣

٩- الأعلام، خير الدين الزكلي، دار العلم للملايين، بيروت ط١٥، ٢٠٠٢م

١٠- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، بيروت، دار الفكر، ط ٢، ١٩٧٨ م .

١١- البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مطبعة عيسى الحلبي، ط ثانية ١٩٧٢ م .

١٢- جامع البيان في تفسير القرآن، للطبري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٧٢ .

١٣- الحجة للقراء السبعة .لأبي علي الفارسي، تحقيق بدر القهوجي . طبعة دار المأمون . دمشق ط ١ ١٤٠٤ هـ.

١٤- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، بيروت، دار الهدى، ط ٢، ١٣٧٢هـ-١٩٥٢م

١٥- دراسات في الاستشراق ومناهجه . د. حسن عزوزي، طبعة فاس. المغرب. ١٩٩٩م.

١٦- الدر المصون في إعراب القرآن، للسمين الحلبي، تحقيق د. أحمد الخراط، دمشق، دار القلم،ط ١، ١٤٠٦ هـ .

١٧- دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، محمد السيد جلييند، مؤسسة علوم القرآن. دمشق، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

١٨- رسم المصحف العثماني للدكتور عبد الفتاح شلبي . دار المنارة . ط٣، ١٤١٠هـ .

١٩- السبعة في القراءات، تأليف أحمد بن مجاهد، تحقيق .شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٢ م .

٢٠- السلاسل الذهبية.د. أيمن سويد.دار نور المكتبات. جدة. ط ١، ١٤٢٨-٢٠٠٧

٢١- سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢، ١٣٩٣هـ.

٢٢- سنن الترمذي، الترمذي، لأبي عيسى *الترمذي*، *طبعة* مؤسسة الرسالة العالمية . تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون. بيروت ١٤٠٨هـ.

٢٣- السنة ومكانتها فى التشريع، د مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، ط٣، بيروت - ١٤٠٢هـ.

٢٤- شرح العمدة، لابن مالك، تحقيق د عدنان الدوري، بغداد، مطبعة العاني، ١٣٩٧ هـ .

٢٥- صحيح مسلم بشرح النووي، القاهرة، دار الآفاق العربية ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

٢٦- عمدة الحفاظ أحمد بن يوسف الشهير بالسمين الحلبي، دار الكتب العلمية،بيروت، ١٤١٧ه- ١٩٩٦م .

٢٧- فتح البارئ شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.١٣٧٩هـ.

٢٨- في رحاب القرآن د. محمد سالم محيسن، دار الجيل، القاهرة ١٩٨٩.

٢٩- القراءات في نظر المستشرقين والملحدين. عبد الفتاح القاضي. دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣.

٣٠- كنه الاستشراق" ،د. النملة، كتاب دوري محكّم، عدد١. المدينة المنوَّرة: كلية الدعوة والإعلام، جامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلامية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م-

٣١- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

٣٢- مباحث في علوم القرآن. مناع القطان.مكتبة المعارف. السعودية .ط ثانية ١٤١٧ .

٣٣- مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه .د. عدنان زرزور. دار القلم . سورية .ط ١، ١٤١٦ هـ .

٣٤- مذاهب التفسير الإسلامي، جولدتسيهر.ترجمة د. محمد يوسف موسى. مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥م.

٣٥- مختار الصحاح أبو بكر محمد الرازي، دار الفكر، ط١ بيروت ٢٠٠١م

٣٦- مختصر التبيين لهجاء التنزيل . أبو داو سليمان بن نجاح . قسم الدراسة تحقيق د. أحمد شرشال. ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤٢١هـ

٣٧- المستشرقون والتاريخ عبد العظيم الديب، مجلة البعث الإسلامي وتصدرها ندوة العلماء لكهنؤ الهند المجلد ٢٧، العددان الأول والثاني رمضان وشوال ١٤٠٢ه، ١٩٨٢ .

٣٨- معجم المصطلحات العلمية والفنية، يوسف الخياط، دار لسان العرب، بيروت

٣٩- مناهل العرفان في علوم القرآن الزرقاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت. - ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م

٤٠- مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم. د. حسن عزوزي.فاس المغرب.

٤١- معرفة القراء الكبار للإمام الذهبي، تحقيق بشار عواد، مؤسسة الرسالة بيروت .١٤٠٤هـ.

٤٢- النشر في القراءات العشر.دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.

٤٣- هل انتهى الاستشراق حقًا د. مازن صلاح مطبقاني، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية . الكويت . جامعة الكويت، السنة الخامسة عشرة، العدد ٤٣، رمضان ١٤٢١، ٢٠٠٠.